السد
بقلم
محمود المسعدي
elmaekki 55

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M. OLIN LIBRARY
ITHACA, N.Y.

Ex Libris

Professor

J. HEYWORTH-DUNNE

B.A., D.Lit.

№ 10317

السُّكْ

951 ع
س

سلسلة المؤلفات الادبية

السّدّ

رواية في ثمانية مناظر

بقلم

محمود المسعدي

رسوم حاتم المكي

شركة النشر لشمال افريقيا

تونس ١٣٧٥/١٩٥٥

طبع من هذا الكتاب زيادة على الطبعة الاعتيادية
١٠٠٠ نسخة ممتازة

OLIN
PJ
7846
A8
S9

Silsilat mu'allafat adabiyah

جميع الحقوق في جميع البلدان محفوظة للمؤلف

مقدمة

١

« أتشرف بتقديم هذا الاثر الفني الخالد لقراء العربية »

بمثل هذه العبارة الجوفاء تقضي التقاليد أن استهلّ هذه المقدمة .

ولكني حريص على أن أدفع عني ـ منذ البدء ـ ذلك « الشرف » ، وعن هذا الاثر الفني ذلك « الخلود » .

أدفع ذلك الشرف ، كي لا يكون غلاّ في عنقي وقيداً لفكري وشلا لقلمي .

وادفع ذلك الخلود ، لاني أعلم أن صديقي المؤلف لم يُقبل على سبك هذا الاثر ونحته ، الا « ليحاول » أن يطرح عن نفسه أزمة لا تنتاب نفسا من النفوس دون ان تثير فيها

براكين خفية ، وتجعلها تتجرع الغصّة بعد الغصّة ، وتكابد الظلمة بعد الظلمة . فهو أثر من صميم جوهر مأساة الفكر والحياة . وانه لمن واجب المتحدث عنه أن ينسى المحفوظ والمبتذل والمعاف من الاساليب ، ليقابل ما فيه من أنّات وحسرات واندفاعات فاشلة بصيحات العطف العميق ودقّات القلب المتوجع ، كاسراً سدود اللفظ الجامد وحيطان العبارة الضيقة ، ناشداً أوساع الفكر وأبعاده وأعماق الاحساس المتفجر الحي الزاخر بأقدس ألوان الحياة المضطرمة المتلاطمة مجاريها وتياراتها تلاطم أمواج المحيط الطاهر !...

فهل أنا مخطىء ـ بعد هذا ـ ان حرصت على أن أدفع جميع الطرق المألوفة التي يتوخاها ـ عادة ـ من يتولون تقديم الآثار الادبية لقرّائها ؟

فلأدفعْ اذاً بعيداً عني جميع تلك الطرق والاساليب ولاحاولْ تجريد قلمي ـ ما استطعت الى ذلك سبيلاً ـ من الالف والعادة حسب تعبير المعتزلة ، ولاطلقِ العنان لفكري لا قيد يقيده ولا مراعاة للصداقة تردعه : رائدي الوحيد أن أقول ما أراه الصواب والحق وأن أعبر عن بعض ما تضطرب به نفسي من شتى الخواطر والآراء عند قراءة هذا « السدّ » .

186347

ما تصديت لنقد أثر من الآثار الادبية أو الفلسفية الاصيلة الا ظهر لي ظهور القلعة المنيعة في وجه قائد الجيش الذي يريد اقتحامها وتذليلها. هي تبدو ـ أول وهلة ـ عزيزة الجانب برجالها ومستحكماتها وعدّتها ومنعتها ، لا يتطاول عليها متطاول الا قابلته بالسخرية الكافرة وبضحك مدافعها المقهقهة ودمدمة أبراجها العتيدة... الا ان القائد الفاتح لايلتفت لسخرية الابراج ولا لكفر المدافع. هو ينظر اليها نظرة المتحدي ، ثم ينظم صفوفه ويجهّز عدّته ويضرب حولها الحصار ، في أناة وفي تبصّر وفي ثقة. ثم يقبل على مستحكماتها يقضي عليها الواحدة بعد الاخرى حتى يكون الهجوم على قلب القلعة ...

فليكنْ شأني من هذا الاثر شأن ذلك القائد من قلعته ولا نظرَ الى مختلف جوانب « السد » جانبا جانبا حتى يكون من اليسير عليَّ ـ فيما بعد ـ الآهتداء الى صميم الغرض الذي تدور حوله مشاهد الرواية وحوارها .

ان أول ما يلفت النظر من هذا « السد » لغته والحرية المطلقة التي يتنفسها الفكر في فصوله على اختلافها : هما أمران مستقلاّن في نظر من اعتادوا أن يقسموا الادب الى أدب لفظ وأدب معنى ، ولكنهما أمر واحد في نظر الاديب الاصيل

الذي الف ان يصارع اللفظ الى ان يصرعه ويخضعه الى ما يريد من أداء شوارد المعاني ودقائق الاحساس الحي النابض...

تطالع « السد » فتعجبك منه وتبهرك هذه اللغة العربية المتينة التي تذكرك باروع عصور العربية وأفصح أساليبها ، تذكرك بلغة الاصبهاني في أغانيه ولغة التوحيدي في مقابساته . وهي مع ذلك لغة فريدة في ادبنا العربي قديمه وحديثه ؛ هي لغة فاتح من الفاتحين في الادب ممن تراهم جديرين بمجد تجديد نظرة الادباء الى شؤون الفن وأساليب البلاغة .

هي لغة المسعدي ...

أقول هذا من دون أدنى تحفّظ ومن دون أن أخشى خدش « تواضع المؤلف » لاني مؤمن بأنها تفتح للادب العربي عصراً جديدا وتربط ـ فوق ظلمة قرون تقهقر النثر العربي ـ بين أزهر عصوره الماضية ومستقبله الوضّاح .

تنظر في أخصّ خصائص هذه اللغة فتجد أولا مايمكن لي ان اسميه « اقتصادها » او « زهدها » . فما من عبارة الا ولها معناها الاصيل . فلا زخرف كاذب ولا حشو ولا كلمة تردد الاخرى : وظيفتها في الجملة كوظيفة مقاطيع الشعر او تفعيلاته ان اردت ادخال اي تغيير على ترتيبها اختلّ الوزن وانتفى النغم.

في هذا سحر تلك اللغة وسرّ عظيم مفعولها في النفوس : هي لغة الرمز . ولئن كان هنالك أمر يُغبَط عليه المسعدي فهي تلك القدرة العجيبة التي ينفرد بها بين أدباء العربية في العصر الحديث : فهو يعرف كيف يتتقي ـ لا المعنى الكلي أو المفهوم الجاف الذي يحدّ أمام نظرك الابعاد ويضيّق على فكرك المجال ـ بل « اللفظ الحسي » ينطلق كالسهم نحو « هدفه المقصود » لا يخطئه ، فاتحاً أمام عينيك العوالم الفسيحة ، مثيراً فيك زوابع الفكر ومآسي الوجدان . فكأنّ اللفظ ـ رغم جماله الفني ـ لم يقصد لحدّ ذاته ، بل لغرض آخر أسمى والطف جوهراً ... هو كاشارة المنوّم التي يقصد منها احلال ارادة مكان ارادة واحساس مكان احساس وشخصية مكان شخصيّة... هو « رمز » للمعنى او الخاطر او الشعور الذي ما كان ليعبّر عنه الا به ... كما لو كان بينهما « مناسبة طبيعيّة » تُكره فكر القارىء على ألاّ يتجه الا الاتجاه الذي اراده المؤلف كي يشرف على ذلك المعنى أو الخاطر او الشعور ... دون غيره .

هو اداة الوصل بين المنظور وغير المنظور ...

وفي هذا أيضا سرّ ذلك الرواء الشعري الخالص الذي يمتاز به أسلوب المسعدي .

وفي الحق فانه ما كان ليفوز ـ لولا هذه اللغة الشعرية ـ باحداث ذلك الجوّ الخيالي الصرف الذي يكتنف « السد » كله . هو جو الاساطير اليونانية وخيالها الباري !...

كل شيء في هذا العالم حيٌّ نابض ، وكل شيء فيه ناطق. قوة « الباري » تتجلّى في جميع مظاهره : فالسماء ناطقة بهواتفها ، والجبال ناطقة بمنطقها الصامت الذي « يصغر عنده الانسان » ؛ وحتى الحجارة فهي ناطقة وان ظنها « العجم » من الناس صامتة (ولعل امتع شيء في هذا « السد » هو الحوار بين الحجارة !...)

ابطال هذا العالم رجل اسمه غَيْلان وامراة اسمها ميمونة ... وجبال واودية وهواتف وبغل وذئب ... والغريب انْ لا غرابة في ذلك ولا داعي للاستغراب : هو الوجود وقداسته وحياته الخفية . هو الوجود قد عاد الى طهره الاول . كل شيء فيه الى « مصيره » ساعٍ ، بل كل شيء فيه يغني اغنيته للتحرر من مصيره والاندفاع نحو ضرب من الحياة اسمى واطهر .

فالطهارة هي الجوهر الذي قُدّ منه الجو اوْحِيكَ منها هذا العالم . هي الاطار الشامل للقصّة : عصا سحريّة اثارته ،

ويد صناعٍ دفعت فيه برجل وامرأة ليشاركا في هذا « السباق الكوني » نحو الطهر ، واحساس فريد عطف على هذا السباق وانصت للحوار الذي دار بين ابطال القصّة وتتبع ما كان منهم من اندفاعات واضطرابات نفسية : هذا هو « السد » !

وانك لتلقي بنظرة عامة الى الادب العربي كله فلا تجد اثرا واحداً نفذ لصميم الوجود ، او قل لصميم مأساة الحياة ، نفاذ هذا الاثر الصغير حجماً ... هو من اشد آثار الادب العربي « انسانية » . وانه ليدل دلالة واضحة جلية على ان مؤلفه قد حاول خرق جميع السدول والاوهام وتفكيك دواليب الحياة ومحركاتها الخفية . حاول هذا الامر في جرأة نادرة وحرية فكرية مطلقة : عُذره (ان كان لا بد ان تلتمس له عذراً امام قرّاء العربية) انّه فرد اراد ان يفهم الحياة وسبب الاضطراب فيها ، في صدق ودون تدليس او غش او تعليل نفس ...

فما هو نصيب محاولته من النجاح ؟ هل اصاب الهدف ام اخطأه ؟ هنا تبدأ محاسبتي له المحاسبة العسيرة !

المفكرون عديدون مختلفون ، ولكنهم موزّعون بين اسَرٍ قليلة هي « اسر الفكر » . فالغزالي وباسكال من اسرة

وارسطو وابن رشد وديكارت من اسرة ثانية ...

ولكن تلك الاسر نفسها يمكن لنا ان نصنفها باعتبار قربها او بعدها من اسرتين رئيسيتين تكادان تكونان كالقطبين في المقابلة والتضاد .

هنالك اسرة المفكرين الذين يتخذون من العقل او الادراك الصرف وسيلة للمعرفة . ويغلب على افراد هذه الاسرة المنطق وما يتبع المنطق من مزايا وعيوب : جفاف وصلابة ووحدة نظر ... وهنالك اسرة المفكرين الذين لا يقيمون للمنطق ومقاييسه ومفاهيمه كبير وزن : يسعَوْن وراء الحقائق ، أو تُقل الحقائق تسعى اليهم ، عن طريق العطف العميق والاحساس المضطرم والهوى الجارف .

تخاطبك الاولى بالمفاهيم والمعاني الكلية والحجج والبراهين العقلية . وتخاطبك الثانية بالاندفاعات والوان الحماس وبروق العاطفة وبراكين الطبع الثائر .

عالم الاولى عالم الآراء المنسّقة ، المستنتجة من مبادىء اولية . وقد يكون عالما عاريا ، بارداً ، جافا ، فقيراً ، ولكنه عالم الوحدة والوضوح واستقامة الخطوط ... لا يتساكن فيه الا ما ائتلف وتنادى وانسجم !

اما عالم الثانية فعالمٌ خصب ما امكن الخصب، متنوّع ما امكن التنوّع. هو عالم الحسّ وبهجة رموزه، وعالم النفس الصارخة ووثباتها الجامحة. هي الاحاسيس والصور الخاطفة، لها كلّ حين انبثاقها وتلاشيها، فجرها وعتمتها.

تدخل العالم الاوّل فلا يتحرّك منك سوى العقل، ولكن هو الصفاء والانبلاج والطمأنينة. خُطاك فيه ثابتة ثبوت القياس في ظفر استنتاجه ...

وتدخل العالم الثاني فيهتز كيانك كله ويرتج!.. هو الحماس يتسرب ويشيع في اعصابك وفي احشائك وينفذ اليها نفاذ الرصاص. هو الشعور الحادّ، وهو الغموض والذهول ما بين الارض والسماء. هو الدُوار، دوار القِمم. وهي الرعشة او الشطحة. وهو الصراخ يصّاعد من اعماق الكيان كما يصّاعد عويل الذئب في الفلاة، دالاً على وحشة الكون ...

تنصت لاصحاب الفئة الاولى فتجد الفكر الواثق بنفسه يمدّ ـ متئداً رصينا ـ جهاز علاقاته واسبابه وحباله، ليكبل بها الكون تكبيلا فينقاد له ـ مكرها او مختارا ـ انقياد الضاري اذ يسقط في شبكة الصياد. وهذا هو «عقل» الوجود والهيمنة عليه بالفكر!..

وتنصت لاصحاب الفئة الثانية فتلفي العجز وما يدل على العجز : تلفي اللهفة والحرقة والحسرة ...

هي أعصاب شُدَّت كالطبل ، ونفوس غمرها سيل الحس او الهوى التدافع المتضارب، فمزّقها فصارت ثائرة مجدّفة. هي « الفردية » في ضعفها وفي حدودها الضيّقة ، تصطدم اندفاعاتها بعقبات الوجود وتنظر لنفسها وكأنها « ذرة » من الرمل ضائعة بين الرمال على الشاطىء المترامي ، فيتلاشى « مصيرها الفردي » في خضمّ « المصير الشامل » ، فتشتي انثنا، الغصن أمام العاصفة و تُعول عويل الارامل!...

وبعد فهل أنا في حاجة الى أن أقول الآن ان المسعدي من هذه الفئة الثانية، وان « السد » أثر من آثار ذلك العويل ؟

هو عويل « منغم » ساحر أخّاذ ، ولكنه عويل على كل حال. ويمكن لنا ـ من دون تحامل ـ أن نجعل لهذا الاثر عنواناً آخر . وقد لا نحتاج الى البحث طويلاً لاكتشاف هذا العنوان الجديد : هو المؤلف نفسه يشير به الينا في غضون الحوار اذ يتحدث عن « لحن السواد » .

وفي الحق فانه كان في الامكان ان يكون « لحن الحبور » لا « لحن السواد » . فالغرض الذي يدور حوله الحوار هو ايمان الانسان بالفعل ، بالانجاز ، بالخلق ...

وغيلان هو ذلك الانسان آلى على نفسه أن يكون «عبد الحياة الصادق الايمان»، لا يبالي بالعقبات ولا بثنايا الطريق ومفاجآتها، ولا بأهوال الجهاد، بل قل هي تزيد عزيمته مضاء وبصره نوراً ووثبته امتداداً. سكنه حامه سكنى المقيم. فانقطع له بكليته وأصبح هو النشيط أبداً لا يعرف القرار ولا السكون. هو القائل لميمونة: «مستحيل أن اسكن يا ميمونة أو تسكني، لان حياتنا مفعمة عقبات وثنايا وارتحالات وأسفاراً، خلو من كل وصول ونزول وكل قرار وسكون ...». وهو القائل أيضا: «هذه الارض المتجعدة المغبار كالعجوز، لأُحبلنّها ماء فأملأنّ بطنها فأخرجنّ حياة ...» وهو هو الذي يسخر بالعُجّز مؤكداً: «فرّوا من الفعل عجزاً وبطلان نفس ...». وهو هو الذي يحدّ الايمان بالفعل هذا الحدّ الرائع: «الكفر بالنواميس والعراقيل، وانكار العجز والاسلام، ونفي العدم: هو الايمان بالفعل ...»

وانك لتتبّع جميع ما يصدر عنه من أقوال من أول القصّة الى آخرها فتجد هذا الايمان يضطرم في فؤاده جذوةً وهّاجة منيرة. ما تعرّض له بالاشارة او التصريح الا دوتْ عبارته بهدير البحر الطامي ساعة المدّ!

ومع ذلك فانك تنظر لقائمة أبطال القصة في الصفحة الاولى فتعثر على هذا التعريف الغريب لغيلان : «رجل ، كائن زائف» . فتعجب لذلك وتعيد النظر في أمره علّك تهتدي لسر «زيفه» وتسائل نفسك : لعلّ ايمانه بالفعل من باب الاقوال الفارغة والادّعاء الباطل (وكثير من مترعمي الفعل من هذا القبيل) . ولكنك سرعان ما تستشف خلال لهجته وحماسه وافعاله كلها ـ مبتدئها وخبرها ـ كنز الارادة الصادقة ! ويشتد استغرابك ، وتنصت لشهادة ميمونة فاذا بها ترمي البطل بالعجز وتتّهمه بعدم التبصر في حقيقة ما تسميه «عورة نفسه». ولكنك لا تطمئن ولا تصدقها ، بل تسيء الظن بها قائلا في سرّك : «أنثى أعياها جهاد الذكر وأعياها ما يصبر عليه من عقبات خارجية وأمور عارضة ، وأضناها نسيانه اياها ، فضجرت وارادت الحياة واللذة ... »

ولكن لِمَ تُحمّل المؤلفَ مسؤولية حكم ميمونة؟ لا بد هنالك من سبب . وتسائل نفسك من جديد : «ما عورة نفس غيلان ؟»

واذا بسرّ دقيق ينكشف لك شيئاً فشيئا : عورة نفس غيلان هي عورة الانسانية قاطبة ، وعجزه هو عجزها ، وبطلان

مساعيه هو بطلان الحياة وحماقة الحياة العابثة ... اذ ذاك تفهم خيبة « السد » وتفهم أنه رمزٌ لجهاد الانسانية قاطبة ، ورمز لخيباتها المتوالية رغم انها لاتنفك تعمل وتجهد لغلاب العدم والانتصار على الفناء . وتفهم أن الانسانية ـ في نظر المؤلف ـ حين يختمر في مهجتها « الحلم » وتأبى الا أن تندفع لتحقيقه ، وحين يتريع في وجهها السراب وتأبى الا أن تجعل من السراب ماء فجاجاً ، انما هي عمياء لا تبصر أن مساعيها باطلة ، واضطرابها عقيم ، واندفاعاتها خاسرة ، ورجاءها في الخلود غرور وسذاجة مضحكة ...

يعينك على هذا الفهم سخرية الهواتف بالانسان اذ تترنم بهذا النشيد :

أنا الانسانْ ..
مادم الجدُّ
مادام الجهدُ
ما اشتد الغرمُ
وليد النفسِ
وليد النارْ
لا ابالي ...

وتعينك على الاهتداء اليه الحجارة اذ تقول هازئة بالبشر: «هم مفعمو النفوس ايمانا واقداما وحبا للجهاد، وانهم لسكارى... يريدون ان يخلقوا!... انهم لا يريدون شيئاً... انهم يتوهمون أنهم يريدون ...» وتريدك بيانا فتقول: «البشر من عادتهم ان يجمعوا الاوهام والمعتقدات: يؤمنون بالله وبالشيطان، وبالانس والجان، وبالقبح والجمال... وبالعدل وبنات السعالى، وبالقوة والخمر، وبالعمل وتمائم السحر، وبقدرتهم والسدود في الصحاري. انهم لئامون جمّاعون، باللم والجمع مولعون، كأنهم رواة أو محدّثون!».

وهنا تتذكر كلام ميمونة، وتفهم قصدها من بعض عباراتها الغامضة غموض سجعات الكهّان والغازهم. تتذكر موقفها من السد حينما اضطرّها غيلان الى زيارته، وتتبين سرّ اطراقها وسرّ وجومها وسرّ جوابها لغيلان اذ سألها عن رأيها في السد فقالت بعد تردد: «اني افكر... افكر في الصدق، في التجرد، في العراء». وتتذكر بالخصوص قولها لغيلان بعد حلولها بالوادي: حللنا به «حلول الدود بالثمرة. فالثمرة الى التعفّن والفساد».

تلك هي «عورة» غيلان، وتلك هي عورة الانسانية

قاطبة • خطيئة غيلان هي خطيئة الحياة اذ جعلت من آياتها البينات الفعل والانجاز والخلق... وما ثورة المسعدي على الفعل سوى ثورته على الحياة • لذلك تراه يعكس الحقائق عكسا غريبا فيسمي الجبن صدقا وعراء وطهارة ، والاضراب عن الفعل تحريراً للعزيمة ، والسعيَ في سبيل تحقيق سنة الحياة « عجزاً واسلاماً ! »

❁ ❁ ❁

هل يجب الآن محو آثار هذا التجديف بالحياة ورفع صوتي ممجّدا مقدّسا للحياة ولآية الحياة : الفعل؟ لو كان لي اشراق بيان المسعدي، وروعة اسلوبه، واغراء فنّه، وقدرته على بعث الآراء المجردة الجافة جواري ناعمات وحوراً مائسات تثير في النفس ما تثير من صبوة ومن جنون، اذاً لعدلتُ عن هذا «الدفاع» وعن هذه المقدمة الطويلة، ولحررت « سدّا » آخر، ولا بيت الا أن أقدّر له في الختام التوفيق والفوز مثلما أبى المسعدي الا ان يقدّر «للسد» ـ قبل تحريره ـ الاخفاق والفشل...

ولكنّي أظن أن ذلك لن يجدينا ولن يجدي الحياة نفعاً . ذلك أنه يكون مجرّد جعل « منطقٍ » أمام « منطق » وعصبيّة « طبعٍ » أمام عصبية « طبع » •

أضف الى ذلك بالخصوص أن الحياة تزدري التمجيد ازدراءها التجديف، أو قل ان التجديف والتمجيد لديها سيان. أعني أن « ناموسها العادل » أو « سنتها الصارمة » (والتعبيران عندي مترادفان) تستخدم التجديف مثلما تستخدم التمجيد او التقديس وتتخذ منه سلما للارتقاء . وقد يكون التجديف ـ احياناً ـ أجدى لها من التمجيد ، اذ يمكّنها من تحطيم « قيم » كانت صالحة لها في بعض الاوقات ثم غار رحيقها كالماء في الرمل فاصبحت فاسدة عقيما ... وتلك هي سنة صعود الحياة نحو النجوم ...

ومع هذا فانى لا اريد ان أختم هذه المقدمة قبل ان أتعرض « للموضوعات » الفلسفية التي ينهض عليها « سد » المسعدي . فجميع ما يثيره المؤلف ـ على لسان أبطاله ـ من مشاكل حول الايمان والصدق والعراء والتجرّد ، وحول الفعل والحياة والفكر ، يحكي طيران سرب من الفرّاشات الزاهية الالوان ، الجذّابة المغرية . ولكنه يبعث فيك نوعاً من الحنق عليه شديداً . هو يثير المشاكل ولا يحلها ، وان حلها فباستناده الى « مبادىء » او « مقدمات » او « موضوعات » قدلا يُسلّم بها دائما، وباستغلاله اشد الاستغلال لحقائق رائعة كيقظة الفكر

والطهارة والصدق، مع فهمها فهماً خاصاً فيه قسوة وفيه تعسّف وغلوّ ...

من تلك « الموضوعات » ظنّه ان الحياة اضطراب باطل وان محاولات الانسانية فاشلة ... لا محالة . صحيح أن الزمن يطوي الحضارات الانسانية : فقد طوى حضارة بابل وأشور ومصر الفراعنة. وطوى حضارة اليونان والرومان وطوى حضارة العرب ... وانه لطاوٍ حضارات أخرى .

الزمن تيار جارف قاس ... لا يرحم . وحق لميمونة - من بعض الوجوه - ان تقول قاصة رؤيا رأت فيها « السد » رمز جهاد الانسانية قاطبة : « نظرت ويلاً شديداً وهولاً . رأيت الماء غائراً في الهاوية ، أصواتا مشتبكة كأنها أصوات الهاوية ، واقعا فيها كالحلم او الخيال او الامنية تقع في الابد فتغيض فيه ... ولا يرده السد . ولا يحبس منه شيئاً ... رأيت سداً من جماجم موتى قد رصّفت اكمل ترصيف ... رأيت الماء جاريا من الجماجم والمناخر كالمخاط او كالغراء ... ولم أر هولا اشد من بقبقة تلك المياه في جماجم الموتى وصرخت روّعاً ... »

كل هذا ينمّ عن احساس بالوجود صحيح من بعض

الوجـوه : جهاد الانسـانية بناء هائل ، ولكنّ هذا البنـاء المرصوص انمـا رصّ بالدموع وبالعرق الصبيب وبالـدماء وبجماجم موتى الاجيال . ولكنْ من الباطل ان يقـال ان « سـدّ » الانسـانية لا يحبس ماء ... هنـالك صراع بين الانسانية والعدم ، بين الحلم والواقع . وهذا الصراع هو مجد الانسانية ومجد الحياة ، وهو ظفـر الانسانية وظفـر الحيـاة . ولئن شمل العدم هياكل الحضـارات وجماجم موتاها وجثثهم الهـامدة الباردة ، فان « ارواح » تلك الحضارات و « عـرائس افكارهـا » باقية ، حية نامية بارية ! ومـا اظن ميمونة تقول لغيلان هذا القول : « أومن ... بالمرمر الصلب والخط المطلق وعود الحياة اليابس » ، الا لان « روح » الحضارة اليونـانية في قلبها قد حلّ . ان في نفسها لشوقاً متلفاً الى ذلك العهد البعيد القريب الذي وُجد فيه من آنكبّوا على المرمر الصلب وعطفوا عليه العطف العميق ناشدين الكمال في الجمال ، والاطـلاق في الخط ، والانطلاق والحرية في المادة ، وفي الوجود كله النغم !

ولئن كان هذا حقّـا ـ وانه لحق مبين ! ـ فجهاد الانسانية ليس بباطل ، ومحاولاتها ليست بفـاشلة . هي خالدة خلود الجهد ، وهي خالدة خلود الدأب الصبور . وحق للانسان

ان ينشد ، دون ان يخشى سخرية ساخر او ازراء زارٍ ، هذه الابيات :

ما دام الجهدُ
ما اشتدَّ العزمُ
وليدُ النفسِ
وليد النارُ
لا أُبـالي

وحق له الاَّ يبالي : فان في الجهد لنشوة ، وان في الجهد لقوة ، وان في الجهد لظفراً .

ولا أُنكر انّ بطل الفعل يلاقي ـ احيانا ـ « ساعات هولاً » لمـا فيها من يأس وقنوط ، هي ساعات يبدو فيهـا العالم كالبُحران ، او كحشرجة المحتضر ، هـائلة ، مفـزعة ، موحشة ، لا نغم فيها ولا رواء شعر . هي ساعـات انكسار ، وساعات انهياض الاجنحة وانسداد الافق ... ولكن ما هـي الا فترة ! هي فترة اللغوب ، وفترة « انحلال فتل الساعد » أمام ازدحام العقبات وتعدّد الثنـايا ومفاجآتها المرّة ؛ هي فتـرة « ابتعاد » الغاية بعد ان « ظُنّت » قريبة ... ثم اذا بالقوى تتجمّع ، واذا بها تعود متراصّة تراصّ الحديد ، واذا بالغيوم

تتبدّد، واذا بالنور يعود الى البصر، واذا بالحياة تبلغ الاستجمام، واذا بالعزم يضطرم كما كان يضطرم من قبل، واذا بالايمان بالفعل يشعّ كما كان يشع في البدء: «كاملا، مطلقاً، ليس فيه ثلمة ولا تصدع» . واذا بمرحلة من مراحل الجهد تُطوَى، واذا بمرحلة اخرى تنشر، فتدعو وتغري ملحة في الدعوة وفي الاغراء ... ومن جديد يكون الاندفاع، ومن جديد تكون صبوة النار، صبوة النور!...

ولكن أنّى لبعض «المفكرين» ان يفهموا هذه الحقائق! كثير منهم يقبلون على «الفعل» يأساً وقنوطاً ... لا اقداماً وايماناً. يرومون من الفعل السلوان، ويرومون منه النشوة، وفاتهم ان الفعل كالمرأة لا تحبوك «كامل» عطفها و«ملء» انوثتها، الا اذا قدّمت لها «كامل» حنانك و«ملء» رجولتك. ويخلف في وجههم الفعل كما تخلف السحابة الكاذبة، ولا يقدّم لهم الا زائفَ اللذة مقابل ما قدّموا له من زائف الايمان. فيظنّون ان الايمان بالفعل لابدّ أن يكون عمى الفكر وذهول الصوفي ... لذلك تراهم لا يتصوّرون الفكر الا عجزاً وقعوداً، ويسمون ذلك «يقظة حقا وصدقا وعراءً وتجرداً» . ولا يتصوّرون

الفعل الا ضربـاً من ضروب الغبـاوة او فراراً من الانتحار ٠ وينعتـون ذلك بتعليل النفس او العجـز او الاستسلام لبـلادة الغريـزة وبطلان الحياة ٠٠٠ انفصمت عند هؤلاء الروابط بين الفكر والحياة، فصار للفكر سُنّة وناموس وللحياة سنة وناموس، وكان بين السنتين وبين الناموسين تضـادّ ونفور ٠٠٠ وكان ما لابدّ أن يكون : الحرص على ان يكون الفكر نفيا للحياة وتحرّرا من قيودها : وهو أمر يمكن ان نسميه : « السرطان الفكري » ٠

وبعد هل يمكن لي الآن أن استردّ باليسار ما دفعته عن نفسي باليمين في مستهلّ هذه المقدمة من الشرف الذي ينالني من هذا التقديم ؟

اني اطالب الآن بهذا الشرف لانه لم يعد مخطـراً عليّ كما كان مخطراً في البدء ٠٠٠ وانى لحريص على ان أعرب عمّـا تضطرب به نفسي من دواعي الغبطـة والسعـادة حيـن أرى الادب العربي يسير بخطى ثابتة نحو « الشـؤون الجوهرية » ونحو التعبير الصادق عن أصْدائها الحيّة الداوية في النفوس !

تونس ٠ محجوب بن ميـلاد

استـاذ الفلسفة بدار المعلمين

٢

كُتب «السدّ» ومؤلفه لم يجرّب بعدُ العمل والفعل ، ولم يكن يأمل اذ ذاك ان يحين له العمل يوما من الايام. ومع ذلك فان الفعل هو المشكل الاساسي من هذه الرواية.

وتنتهي القصة فتسفر عن هزيمة غَيْلان وفشل الفعل . ثم ان المسعدي يزج بنفسه بعد ذاك في ميدان العمل ومايزال يكافح جزيل الكفاح . ولكنّ عطفا خفيا على غيْلان بقي متأصلا في نفسه ، وكأن الحوار مستمرٌ بينهما .

في هذا وذاك ثنائية وتناقض يجعلنا نعتقد ان « السدّ » قطع عن مؤلفه عقبات النفس ونهج له من حيث لا يشعر وكان له بمثابة الدواء ـ الى حين ؟

وكُتب « السد » في فتـرة جدب كمروج الخلفـاء تنبسط لقيظ الشموس ، فاطّرح صاحبه الاعراض وهتك الحجب ولمعت فيه نار الفكر القاتمة . فاذا المشاكل تقوم لديه جوهراً صلداً محرقا ، لا تبقي ولا تذر . ولكنه لم يستطع ان يقتل في نفسه الشوق الى « الماء » ، واذا الدنيا توضع فيه من خلف ، واذا سلوكه هو « المستحيل يُرغم على الامكان . »

وهذه الثنائية قائمة في قلب الحوادث النفسية من هذه القصة وهي التي تبعث فيها القلق والحرج وتوجهها نحو المأساة: فغيلان ثائر على واقع يريد تحويله وخلقه من جديد ؛ ولكنه يؤمن في اعماقه بالخيبة والفشل ، وأن الجهود الانسـانية « لا تستطيع لسنة الله تبديلا » ... وينهار السد ...

تبـدأ الرواية عند وصول غيـلان وميمونة الى سفح « جبل اخشب غليظ »... آخرَ عشيّ . ويدور بينهما حـوار بسيط مرصّع بكلمات تشير الى ابعاد في النفس وتهيء الجو الروحي ؛ ككلمات الـرحيل ينقطـع ، وغروب الشمس يوافق الوصول ، والنزول بالخيال ... الخ... ويكشف هـذا الحوار عن طبيعتين متقابلتين : ميمونة ترى المسموعات ؛ تنظر الى الجبل فتسمع صـوته ينذر ، وتؤمن بالغيب وتـوجس في

الكون انذارا . اما غيلان فساخر منطقي الكلام ، يرى ما يُرى ويَسمع ما يُسمع ، ولا يخلط بين مُعطيات الحس المتباينة ولا يقول الا بالواقع. ولكنا نحس وراء هذا التصميم الهادىء بطائف من الارتباك ينازع نفس غيلان فيتحاشاه ويريد ان يلقيه وراء ظهره ويتناساه في زوايا اللاشعور ، كالمتطير يأبى ان يثبت ما تكره نفسه . وكأن ميمونة تتكلم بما لا يريد هو الامعان فيه : فهي لا تؤمن بانتهاء الطريق ؛ وهذا القرار الذي يدّعيه مكذوب عندها ، تشبهه بحلول الدود بالثمرة ـ والثمرة الى التعفن والفساد ـ وتنسبه الى الخيال الجرّاف يأكل البشر ...

وفي حنايا الكلام العابث يواجهنا « القلق » ينخر النفوس ، ومسحة من « الاشكال » تعلو الواقع العادي وتثقل وطأته وتصرفنا الى الغيب .

وهذا الاشكال في عالم المسعدي سرّه أن الاشخاص يعيشون موزّعة نفوسهم في الآن نفسه بين الواقع والغيب. بل ان الواقع لا يستمد معناه لديهم الامن هذا الغيب المسلط على ابصارهم . غيلان لايرى الا السد ، يحمله بين جنبيه ويسعى الى تحقيقه في وله العاشق الهيمان . وميمونة لا ترى الا الويل

والثبور يتمخض عنهما المستقبل. فالكون مكتظ لديهما حامل، يثقله المخاض وتقطعه الولادة .

وليس احب الى النفس ولا ادعى الى الشغف من هذا الانكشاف التدريجي لطوية هذين الشخصين . فنحن نتسرب الى معرفتهما قليلا قليلا في شُعَب الحديث، ونشعر بان معرفتنا لهما تزداد نصاعة في كل حين، من دون ان تمّحي تلك الكثافة النفسية التي يتمثل فيها لغز الانسان الحي لا تحده معرفة ولا يلمّ به تقدير .

ومن اول القصة تتنزل المشاكل في المحيط الروحي الديني. وهذه النزعة تلوح في بعض الفقرات العابثة من الحوار. تقول ميمونة : « تنقض الاعباء ظهور العباد فتمتد الاعناق وترتفع الابصار والرؤوس وتكون الصلاة ويكون الدعاء.» تقصد ميمونة أن الصلاة تنشأ في قلب الانسان حين تداهمه المصائب، فالصلاة صلة العبد بخالقه عند الالم والشدة . هي استغاثة الضعيف بالخالق. وتقوى النبرات الدينية في القصة تدريجيا وتتضخم حتى تصبح وجها من وجوه مقاصدها ولوناً من الوان الغيب فيها . يقول مدين في «مولد النسيان» (١) انه ابطل كل

---

١) قصة للمؤلف نشرت تباعا في مجلة « المباحث » بتونس

شيء لانه رأى « الآلهة والنفس والاديان والفكر والعلم، كالسدود تقام وتجعل لها الحكمة والعقل أساً ، فتنتصب واقية الوادي من السيل والنفس من الجنون ». فأزمة « مدين » ثورة على « السدود » وعلى الحواجز والواقع .

هو يريد ان يتحرّر من كل القيود التي تنحصر فيها حياة الانسان عامّة . وكذلك غيلان : يدعو ميمونة الى « الكفر بالنواميس والحدود والعراقيل وانكار العجز والاسلام ». وهناك كلمة لم يتلفظ بها غيلان ، الاّ أنها تهيمن على وجوده وتوجّه سلوكه : هي كلمة الموت . فهو يجهد ان يتغلب على منزلته البشريّة ليفصم قيودها ويتجاوز حدودها ، ومأساته انه ميت لا محالة ، يعلم ذلك ولا يستطيع ان لا يفكّر فيه . وهو يتخذ الفعل اداة تكسيرٍ لهذا القيد المحتوم الذي يشوّه القوة ، ويزيّف الخلق ، ويُحجّر الوجود . ومن هذه الوجهة فسلوك غيلان مغامرة خاسرة من اولها ـ وهو يعلم ذلك ـ الاّ أنه يأخذ على عاتقه ان يناضل وان يصارع .

وليست هذه الثورة منبعثة عن الحاد وتعطيل ؛ بل هي ثورة على الخطوط الجامدة والمرمر الصلب الذي يخنق القوى الفردية ويزيّف الوجود . التّوْق الى المُطلق هو جوهر

هذه الثورة الفتية . ومعناها الصحيح تحطيم السدود، ونزع الاعراض، والتجاوز نحو المستحيل .

وثورة غيلان هذه رغم صيغتها الفلسفية - الميتافيزيكية - تتنزّل في الواقع الاجتماعي . فغيلان رافض لعالمه الذي يعيش فيه هو ومواطنوه، يريد ان يغيّر منزلتهم فيه، بأن يغيّر القِيَمَ التي عليها يشيدون حياتهم وبها ينظرون الى مستقبلهم. وهذه القِيَم روحية «واقتصادية» معاً . فالحياة التي تفرضها صاهباء على عبادها تقوم على القحط والجفاف وليدَي الحرارة والقيظ ، والنارُ هي القيمة القدسية التي بها تطهُر حياةُ «المؤمن» من ميوعة الماء وأدران الرّطوبة. وصلاة المتعبّدين المبتهلين لصاهباء ان يستلقُوا على ظهورهم كاشفين عورة اجسادهم لِلفَحِ الشمس الزكيّ ، حتى يضربها القيظ ، ويجفف ندي نزواتها ، ويعيد اليها صلابة المرمر او براءة الرمال الصادئة. الطهر اذن في عالم صاهباء بالاحتراق وبأن يعود الحي فحما بريئا من خلجات الحياة . فيحترقُ الجسم ، ويحترق الزمن ، ويكون سُبات الصحاري العارية الى ربّها . الطهر براءةٌ من « الماء » وانصرافٌ الى غيب مُحرق كألابد ، هو نفيٌ للحياة والحركة .

ويقدم غيلان « البلدة » ، ويرى ما يقاسيه الناس من زيفٍ وباطل ، وينكشف له ان حياة ذويه انما هي موت بالمعنى قبل الحسّ ، وأنها انتظار للهلاك ؛ فتقوم في نفسه سَوْرة التحطيم والنقض ، وتتأجج في صدره الثورة على الاساطير ، ويعتزم ان يكون نبيّ السعة والنعمة ، وأن يشيّد في هذا الوادي البلقع « سدّ مأرب » الذي اعاد الى الارض خصبها وبهجتها . فيتصدىّ لمقاومة الآلهة وصرف الناس عن « الغيب » الذي يأكل من ارواحهم ويطعم من وجودهم . ويكون تمرّدُه اذ ذاك شبيها بتمرّد « بروميتي » الذي سرق من الآلهة سرّ النار وعلّم الانسان مالم يعلم . فقد اضطلع هو ايضا بأعباء صراع هائل لينقذ الانسان من القحط والعبودية ، ويصرفه عن الحلم بالابد الى الواقع .

ولكن ميمونة تخاف على زوجها عاقبة هذا التمرد وهو عندها مهدّم للواقع ، يكرهه ، ويحب الخيال ويعيش في الحلم ؛ وترى أن زوجها يتقحّم على مغامرة هائلة سوف تكون عليه وبالا . ذلك أن ميمونة امرأة الممكن تحب الحياة كما هي : تأنس الى الكوْن ، وتلتذ بالوجود على علاّته : « هذا الفجر يا غيلان ، وهذا النور كاشهى الطعام... » . وديعة

« راكنة ، تختلج رقّة » وشهوة . فهي تعيش في الحاضر وتضارع الواقع ، بينما زوجها مندفع ، كالوتر المشدود ، نحو المستقبل .

وليست ميمونة فاقدة للبقظة التي تهزّ غيلان وتبعثه على الصراع . وانما هي قابلة للقيود ، مسلمة الى الاقدار ، واقعة الى العالم ، راضية . تنفي الحركة والاضطراب ، وتخلص من كل زمان ، تنعم باطمئنان « بوذا » وايمان الانبياء ، فهي عين القرار (١) .

وعلى نقيضها غيلان . فهو الارادة تتلظى : يريد ان يغيّر « كيانه » بتجاوز الحدود المفروضة عليه ـ اي في الحقيقة بنفي هذه الحدود . فميدان الفعل عند غيلان هو العالم الخارجي الاّ أن هدفه البعيد هو التغيير من الكيان الذاتي الباطن . ذلك أن غيلان يريد نفي ضعفه ورده عجزه بالخلق الذي يمنحه كمال الآلهة . وهذا الخلق آساسه الارادة ـ وهي جوهر الالوهية .

وبذلك يظهر ان غيلان وميمونة يمثلان موقفين من الحياة على طرفي نقيض : ميمونة شرقية تذعن لسنة الكون ،

---

(١) انظر قصة « المسافر » للمؤلف .

بينما غيلان ينتسب الى « نيتشة » : هدّامٌ مقوّض ، يسمو الى الخلق .

وبذلك ايضا يتّضح المعنى الحقيقي لسلوك غيلان . فكلٌ من غيلان وميمونة متعلق بالواقع . الاّ أنهما لا يتفقان في فهم الواقع : ميمونة تحب الواقع الحاضر وغيلان يتوق الى واقع خيالي ، لمّا يدخلْ في حيّز الكيان ، فهو يروم انشاءه . الواقع اذن بالنسبة اليه «قيمة» عليه أنْ يحقّقها . ولكن شأن القيم ان تكون جذوةً من نار ، دوماً يهدف اليها الانسان من دون ان يتصل بها كامل الاتصال . والمرء الذي يسعى وراء « القيم » شبيه « بدون جوان » يقضي حياته في طلب النساء ولا يستطيع ان يتقيد بواحدة منهن . كلاهما نهم جرّاف ، منزلته التجاوز ؛ وكلاهما يهدف الى سعادة الهية لا طاقة له بها ، ولا سبيل اليها : وهي السعادة التي تكون بالتئام الزمن ، حاضره ومستقبله ، في آونة الابد .

يقول غيلان متحدثا الى ميمونة عن رغبته تلك : «ان من بين الساعات لساعةً يا ميمونة... ساعةً يتصور فيها الممكنُ بصورة الكائن الواقع دون ان يتقيد بقيد ولا يُحد بحد . وينقلب فيها الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد اشد

من كل جديد وقوة : هي ساعة اقصى الصعوبة . وانها لساعة اعظم من صاهباء وأعلى ، اعظم من السماء وأعلى ، واعظم من جميع الآلهة وأعلى . انها ساعة الانتهاء ، ساعة تمام الخلق . »

فعملية الخلق تُوقِد في نفس غيلان نشوة وجودية شبيهة بشطحات الصوفيّة . والحق ان غيلان ينظر الى الخلق والانشاء نظرةً صوفيةً ، ويعتبر أن حياته ارتقاء غير محدود نحو المطلق . لذلك يكره الحلول والاستقرار ، ويكره « البيوت الثابتة لا تنتقل ولا تتحرك » ، ويكره ان تذهب مهجته في ميمونة وان يرضى بها واحةً وقراراً : « لئن اكتفيتُ بكِ فاكتنفتني اني اذن لجبان... وقد حذّرتكِ ان تكوني ظلي وبرودتي ونهاية طريقي » .

فغيلان يعتبر أن حياته طريق ، ويكره ان تكون لها نهاية لان الوقوف عند « النهاية » جبن . الحياة عمليّة خُلُقية في جوهرها ، ولا تكون الحياة صحيحة شريفة حتى تكون مغامرة تضطر المرء الى الخلق والتجديد . فاذا كان المرء في مأمن من الخطر جمد سيل الحياة وتحجّر الوجود ، وجاء الزيف والكذب ، وجاء الخوف .

ونرى بذلك ان موقف غيلان من ميمونة كموقفه من

صاهباء : «خطأ هما انهما ثابتتان لا تنتقلان ولا ترتحلان».

وينضاف قيد جديد الى القيود التي ثار عليها غيلان اول أمره : المرأة تحول بين المرء وبين الكون .

على أن لميمونة في حياة غيلان منزلة خاصة . هي من تلك النساء اللاتي يجدن في الحب قبساً يضيء الحياة ويجعلها سعيدة مرضية . فلا رغبة لها سوى العيش قرب غيلان. اما هو فمن صنف الفحول دوماً ينشئون مستقبلهم ، دأبهم المغامرة وغايتهم الخلق . وهو بحكم نفسيته لا ينظر الى الواقع الا بقدر اتصاله بعملية الخلق . فالاشياء عنده كالادوات يستعملها لاغراضه ولا وجود لها بنفسها ، ولا يلتذ بقرارتها ولا يدعها تتسرب اليه فتنعم نفسه وتعمها. وكذلك الاشخاص عامة : يراهم ولا ينظرهم ، ويعرفهم ولا يعلم دخائلهم . اما ميمونة فهي متيقظة الى الواقع اشد اليقظة ، ويقظتها ذهنية حسية عاطفية . فهي تحيا الكون وتستبطن الاشخاص ، ولها ذلك اللطف الحدسي النافذ الى سريرة الاشياء : تتحدث عن زوجها فتنفذ الى أقاصي نفسه وخبيء نزعاته ، فاذا هو عورة لديها مفضوح . واذا السد غشاء يتستر وراءه غيلان ويخفي به عجزه ويلوذ به من معاينة الحقيقة ؛ واذا عورة غيلان عجزه

يحاول اخفاءه ـ وتكتسب كلمة « السد » هنا معنى جديدا : هو السد الذي به يدفع غيلان عجزه ويأسه وآلام منزلته الانسانية : « وما احتاج الى سد الا من خشي التجرد وجبن عن الصدق والعراء ... انظر سدّك كالغطاء يستر عورة نفسك ويخفي علتها ويوهمك القدرة ويستر العجز . »

وميمونة تعيش في الحاضر ، والاحرى أن يقال انها تودّ ان تعيش في الحاضر ، لان غيلان يصرفها عنه كل حين ويشوش تلك الدعة التي تصبو اليها . فهي ايضا كالمسافر يتوق الى الواحة ولكنها سراب ما ينفك يبتعد . وجمال ميمونة انها تتوق الى حياة طبيعية ، خالصة ، تزول معها الحواجز وترتفع الحجب ـ وذلك ادبيا وماديا . فهي تكره تلك المشاكل التي يتخبط فيها غيلان . وتلك العقباتُ التي يحب غيلان الامعان فيها ، تمقتها هي وتعتبرها ضربا من الزيف والعجز . تود ان تركن الى « زوجها » عارية النفس والجسد ، لا عورة ولا باطل حياء ، وان تقضي اليه يومها الضاحي ، تنعم بسعادة الروح والجسد متفقين ملتئمين : « لو سألتُكَ يا غيلان ان نبقى يوما بالكهف وان تنزع الثياب وأدعَ الثياب ، وان نقضي معاً يوما عاريا خالصا طاهرا لا يفصل بيننا كلام ولا

حركة ولا ثوب ، وأن تحبّني ولا تكلّمني ، واحبّك ولا اقبّلك ، وتمسّني ولا تختصّ بلذة ، وألبسك فلا امتاز عنك باحساس ... »

السعادة الانسانية عندها موقفٌ ونظرةٌ الى الوجود ، لا نتيجة عملٍ وفعل .

وكل ما يحدو بغيلان الى الفعل المرهق ، ويجلب اليه الالم والشقاء ، يمكن ان يحوّل الى اسباب متعة باطنة : « امكاناتك يا غيلان ، أعلم أنها بديعات نفسك وأنها العدم يتصور لك ... » .

لكنْ كلّما تحدثت ميمونة الى زوجها هذا الحديث عيي عن ردّ الجواب وكأنّ كلامها نفذ الى اعماق نفسه كالنصل . وكأن ميمونة اذ ذاك وجهٌ من وجوه غيلان ، فيها تجسمت حيرته وشكوكه . وما الصراع الجاري بينهما الا اشارة الى ثنائية خفية تقطّع احشاءه . فميمونة اذن فلذة من وجوده ، و« صيحة الحيرة في نفسه » ، وصوت الواقع الذي ثار عليه فرتج صوته وشرب على شفتيه الكلمات .

وهي في الآن نفسه ضميره الواعي ، و « العين » التي

تنظر اليه من بُعد ، فتحكم بانه من اهل الخيال الكافرين بواقع النعمة وآلاء صاهبّاء : «فعلى اهل الخيال اللعنة» .

ويسكن هذا الحوار المحتدم بين غيلان وميمونة ساعةً ، ويخلفه حوارٌ من نوع جديد بين حجرات ثلاث . وهذا الحديث يشبه ما ينسبه ادباء اليونان في مسرحياتهم العتيقة الى «الاصوات» (chœur) تعبّر عن نظرة مجردة الى حوادث المسرحية . فهذه الحجرات لها الى الاشخاص ـ والى البشرية عامة ـ نظرة اهل «الشعرى» كما يقول الاوروبيون . فالناس لديهم أقزامٌ يزحفون على وجه الارض كالحشرات ، مائعة اجسادهم ، فاترة قلوبهم ، مسترخية أعجازهم ؛ واذا اعمالهم غائصة في النسبيّة الموبوءة : حركة واهتزازٌ ولا معنى ، فهي ضرب من الجنون . وهذه النظرة ليست بقاصرة او ناقصة ، بل هي نظرة الابد الى اعمال البشر . فهي نسبة اعمالنا الصغيرة الحقيرة الى الابد السرمدي . وهي التي تعرّف سلوك البشر احسن تعريف وانفذه : «يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا العجْز» . وكأن هذا الحديث الذي يدور بين الحجرات تفسير لما يدور بخلد ميمونة : عمل غيلان عمل «ميتافيزيكي»

يريد ان يُخْرِج الانسانَ من العجز الى الانسانية الكاملة ، اي الفعّالية الحق . ولكن غيلان لن يستطيع الى الخلق سبيلا ، لانه لن يخلق الاّ الخيال والوهم . وهو عاجز عن ان يخلق العاصفة والرعد والزلازل والبرق . فالمعيار الحقيقي للخلق هو الكون ـ وغيلان لا يستطيع مضاهاته بحال . فالعجز اذن جوهره . وهو الى ذلك كائن رجيم ، لانه أراد ان يزاحم الآلهة فيما اختصّوا به دون غيرهم ألا وهو الخلق . « وقام الكون فسبّح باسمي اني أنا الخالقة الربّة . »

قد يُخيّل الى القارىء بعد هذا التحليل أن عالَم المسعدي عالم الخيبة والفشل ، عالم يتجلى فيه عجز الانسان وبطلان محاولاته الشيطانية .

يجب ان تصوَّب هذه النظرة باعتبار رئيسي : هو ان عالَم المسعدي ليس بعالم استسلام ، بل هو عالم ثورةٍ وطلب ، ومحاولةٍ وعلاج . ولئن انتهت ثورة غيلان بالفشل والهلاك فلقد حاول وصارع . والكفاح فضل الانسان وشرفه الاسنى .

فعالم المسعدي اذن عالم « انساني » ، يُشيد بقيمة

الانسان ـ مع العلم بان اعماله محاولة مآلها الفشل ، وخاتمتها الموت ، الفناء ، العدم ...

فهل يجب حقاً ان نيأس من الانسان ؟ ومن اعماله ؟ لا أظن . هذا العالم القاتم في ألوانه ، المظلم في معانيه ، يشهد بأنه ناقص مفتقرٌ الى ماسواه . وهذه « المحالية » التي يصطدم بها الانسان في حياته ، يمكن تجاوزها الى احد منفذين :

يمكن ان يتجاوزها الفرد الى حدْس صوفيّ من نوع ما ذهب اليه الغزالي : هذا النور الذي يُقذَف في الصدر وبه تعود الصحة وتزول العلّة .

ويمكن ايضا للفرد ان يتجاوز جحيم منزلته الضيقة الى فسحة الامل الجماعي . تقول احدى الحجرات : « هؤلاء الغرباء أنفسَهم يطلبون ، لانهم لا يعشقون غيرها... ولا بهم علةٌ غيرها ولا باطن داء ... لذا ابتدع البشر المِرآة » .

فعجز الانسان راجع اذن الى تعلقه بنفسه وتمسكه بالانا وغرقه في صورته التي تؤديها له مرآة ضميره ـ كغرق «نرجس» في مياه النهر السحري . فاذا تطهّر من أدران جملته

وكدر هواجسه ، وتيقظ الى ما حوله ، ونسّق عمله في كتلة من الجهود وأشاعه ، نجا وسلم ، وارتدّ اليه الوجود صحيحا .

وبعد فان من خصائص الادب الكبير ان يعبّر لا عن مشاكل الفرد فحسب ، بل عن حقيقة مأساة جيل بأسره . ومأساةُ غيلان في الحقيقة مأساة جيلٍ كامل من شباب تونس في اعوام ما قبل الحرب الاخيرة . طغت عليه نزعةٌ من نزعات الفكر الغربي تردّ مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية ، وتحصرها فيها ، ولا تطلب لها حلاً الا في نطاقها . فتسرّبت اليه قيَمُها العاتية وصلفها الرومنطيقي الوهّاج . فشوّشت دواليب في نفسه ، واشعلت في قلبه الحيرة ، فقطعته عن اهله ، واستأصلته من ارضه . ثم اذا هو يتساءل عن قيمة سلوكه ، فيعود الى اهله « كالمسافر » الغريب يسألهم عن سرّ موقفهم من الوجود وفهمهم للكون ، ويحاسب نفسه . (١)

السد اذن مرحلةٌ ـ حاسمة ـ يجب تجاوزها . لا بدّ

---

(١) راجع قصة « المسافر » للمؤلف .

للسدّ ان ينكسر ـ بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد وجماعته ·
ولا بدّ من مواصلة الطريق ·

اما السؤال عن الطريق ما هي واين تنتهي ، فلا معنى له . الانسان ينشىء مستقبله ويدحض التوقع · بذلك يمتاز وتلك معجزته ·

تونس ، افريل ١٩٥٤

الشاذلي القليبي
الاستاذ المبرّز في اللغة
والآداب العربية

٣

هذا كتابٌ أردتُه صدقاً لا يختلف معه وجه الحقيقة في الوحدة والسرّ ، عن وجهها في الجماعة والعَلَن . كتبتُه في عهد انفرادٍ وتأمّل ، وامتحنته بعد العِشرة والعمل مع الناس سنوات ، فلم ألفِه في جوهره تنكَّر لي ، ولا أنكرتُ منه . فأخرجته على علاّته .

وبعدُ فهو كتاب الايمان يَسَع من الحيرة أقصاها ، ومن الشكّ أقساه .

وهو كتاب الايمان بالانسان ، لانه كتاب الفناء في الخلق ، في الله ...

سبتمبر ١٩٥٥ المؤلف

السِّدّ

رواية في ثمانية مناظر

الإهداء

الى روح المرحوم فرحات حشّاد

أخوّةً وفاءً «لانسان»

م.

الأشخاص

مَيْمُونة : امرأة

غَيْلَان : رجلٌ ، كائن زائف

مَيَارى : خيال وطيْفٌ وحبٌّ وجمال

بغلٌ ذكيّ

ذئبٌ ذو عُواء

أطيافٌ وهواتف

ووادٍ وجبل .

الفاتحة

« ليس الشعر في أن تقـول كلّ شيء ، بل
هو في ان تُحلِـمَ النفـسَ بكلّ شيء » .

(سانت بوف - Sainte-Beuve)

المنظر الأول

على منحدَر جبل أخشب غليظ
حزيز ، نباته كالا بَر وارضه ظمآى ،
وغباره كثير وسماؤه صفراء .

آخرَ عشيّ .

امرأةٌ ورجل يصّعّدان في عقبة
يجرّان وراءهما بغلا ، فتنتهي العقبة
عند كهف ، فيقفان ويوقفان البغل .

هي

انظرِ الجبل .

هو

(يمسح عرقه عن جبينه ثم يرفع البصر ثم يقول)

قد نظرت الجبل .

هي

فماذا سمعت ؟

هو

المنظورات لا تُسمع . المنظورات تُرى او لا تُرى .

هي

(ترفع بصرها وتنظر طويلا ثم تقول)

فماذا رأيت ؟

هو

إنّي أرى جبلاً . فِيمَ السؤال ؟

هي

إنه جبلٌ ... وليس بجبل .

هو

إنه جبل وليس بجبل !.. ما هذا المنطق الجديد ؟

هي

منطقُ الجبال يصغر عندها الانسان .

هو

هذا عبث لسانكِ قد عاد إليك.

هي

ألا نحطّ عن البغل؟

يقبلان على البغل يريدان ان يحطّا
عنه، فاذا هو أيضا رافع رأسه كالناظر
الى الجبل .

هو

(للبغل)

أوَ أنتَ أيضا ؟

هي

لا يا غيلان . إنما هو أنْ ثقُل الظهرُ فامتدّ العنق
وارتفع الرأس . كذا الدواب جميعا إذا أنقض
الحِملُ ظهرَها ...
وكذا العباد .

غيلان

تعْنين ؟

هي

الصلاةَ والدعاء . تُنقِض الاعباءُ ظهورَ العباد ،

فتمتدّ الاعناق وترتفع الابصار والرؤوس ، وتكون الصلاة ويكون الدعاء ...

(تبتسم)

وانت إله البغل . بل انظر إليه يدعوك . افلا تَفهم الادعيةَ الصامتة؟

تُقبل على البغل تحطّ عنه ويُسْعِدها غيلان . فيحطّان عنه خيمةً وأوتاداً وخُرجاً بالمتاع كمتاع المسافر . ويلقيان ذلك كلّه على الارض . ثم تجلس هي على حزمة أوتاد . وتمدّ يدها فتتناول دلواً في جملة المتاع ، وتجعل تعبث بها ، وهي مطرقة ساكتة .
ويجلس غَيْلان ويُطرق أيضا . ويبقى البغل على رأسيهما واقفاً مطرقا ...
ثم تتكلم هي فتقول :

هي

هَا قد وصلنا يا غيْلان .

غَيْلان

نعم. لقد وصلْنا وانقطع الرحيل .

هي

ولكنَّا وصلنا يا غيلان آخِرَ عشيّ . انظرِ الشمس تغرب .

ينظر الى الافق الغربي أمامه كأن الشمس فيه لهبٌ من نار . ويمسك عن الكلام ، كأنما اصابه كلامها في الاحشاء . ساعةً ثم يقول :

غيلان

ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال وحلَلْنا بما كُنَّا نتمنَّى ، وانتصبْنا وقرَّ القرار...

(تهمّ بالكلام فيقول ويومىء بيده)

لا. لا تقولي شيئاً . فانك ستقولين إنّك تكرهين معنويَّ النُّزُول . او تقولين إنه ليس اكذب من هذا القرار .

هي

لا ، يا غَيْلان . ما همَّ لِساني بشيءٍ من هذا . إنّما أردت أن أقول : حلولَ الدُّود بالثمرة ، فالثمرةُ إلى التعفُّن والفساد .

غيلان

تقولين يا ميْمونة خطأً عظيماً. لأن الخيال لا يُؤكَل.

ميمونة

قد يكون قولك الحق ... بل هو الحق . نعم. الخيال لا يدود ولا يُؤكَل . الخيال آكِلٌ أكول جَرَّاف. يأكلنا نحن . الخيال من أكَلَة البشر .

غيلان

لنجعلْه ثمرةً من أكَلة لحم البشر يأكلها الدّودُ وتأكلُنا أكلَ المنهوم. هل تدرين ما تَعْنِين ؟

ميمونة

نعم يا غيلان حبيبي . هو ما قلت: إن الخيال آكِلُك

وانت آكله . فعلٌ واحد وزمنٌ واحد ... ولكنّني لا أدري أيّكما يريد الانتقام من الآخر ولا أعرف لماذا. فهو يسكنك ويُلحّ الى حدّ الاضجار . وانت تربّيه وتملؤه شحماً كخروف أضحية . ولا اعلم ما تريدان . إنكما بغلان حَرونان.

غيلان

قد نكون بغلَيْن حرونين ، ولكنّا مع ذلك صديقان . ولا يريد احدنا بالآخر شرًّا . ولن يأكلَني ولن آكله . بل سندعوكِ معاً حتى تُؤمني ...

ميمونة

أُومنُ بماذا ؟ ان كان إيماناً بالمرمر الصلب والخطّ المطلق وعود الحياة اليابس ، فقد آمنتُ منذ زمنٍ طويل .

غيلان

لا يا مَيْمونة . بل الكفر بالنواميس والحدود

والعراقيل ، وإنكارُ العجز والاسلام ، ونفيُ العدم .
هو الايمان بالفعل ... وأمّا خطوطك المُطلَقة ،
ومرْمرك الصّلب ، وحساباتك ، وما استَبدَّ عليك
من سجون النفس والقوّة والعقل ، فسنجعلها دُخاناً
نرسله في السماء ارسالَ المدخّن دوائرَ تذهب هباء،
ظريفةً خفيفةً كعينيك زرقاء ...

(يهتف هاتف في صوت غريب لا إنس ولا جان)

الهاتف

تدعو ماذا الى ماذا ؟

إلى أيّ إيمان ؟

آيمانك بنا ؟

ام إيماننا بك ؟

قُلْ ، قل لنا يا هذا ؟

تدعو ماذا الى ماذا ؟

(ثم يسكت فيهتف هاتف ثانٍ بصوت كصوت الاوّل ولهجة استهزاء :)

أنا الانسان ...

ما دام الجدُّ

ما دام الجَهدُ

ما اشتدّ العزمُ

ولَيدُ النفسِ

وليدُ النارْ

لا أُبالي ...

سواءٌ عندي مآلي

الى النعيمِ

الى الجحيمْ

الى العذابِ

الى الثّوابْ

لا أُبالي ...

أنا الانسان .

(يتناظر غيلان وميمونة)

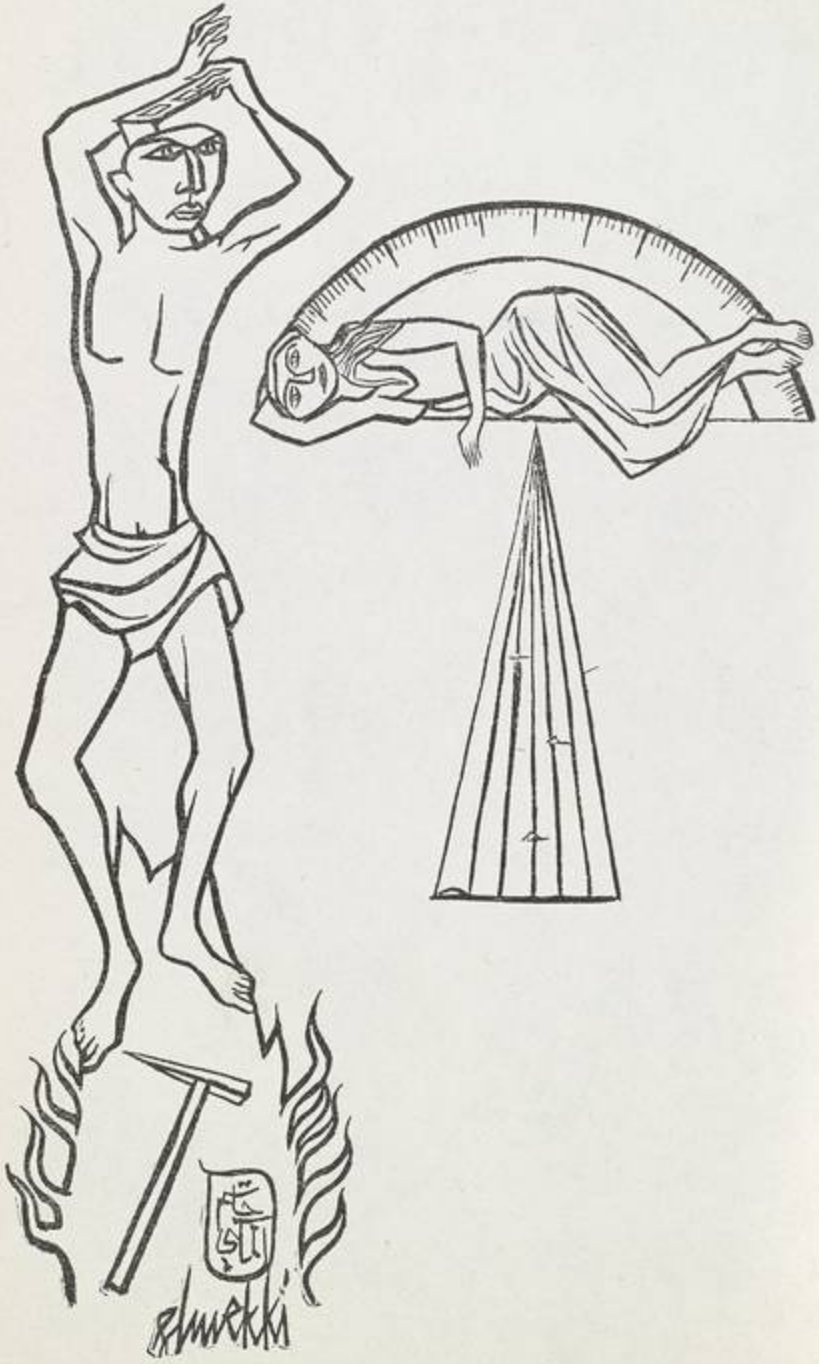

غيلان

إنّي أسمع هاتفاً .

ميمونة

وإنّي أسمع ما تسمع .

(يتضاحكان)

انّه وحيٌ وانّا نبيّان .

غيلان

أوْ هو آلةٌ سيبتدعُها النّاس يوماً ويسمّونها المذياع أو الهاتف .

(يهتف هاتف ثالث :)

من فوق الجبلْ
أشرفْ على الوهدِ
أطلقْ للبصرْ
ثم اخرُج من الوادي
الى وهْد القَدرْ .
هو كشفٌ ؛ انه هو السرابْ

يخرق الارض نوافذْ
يفتح الابوابَ .
يُفسِح الافْقَ عليكْ
يُغري بالذّهابْ .
لكنِ القحط والنّارْ
من ورائهْ .
ولظى حرِّ الأُوارْ
تحت مائهْ .
نارٌ منصبَّهْ
وخَضْمٌ فؤادْ .
فلا تعرض للربَّهْ ،
ولا تقربِ الوادْ .
فهي صَيْهودْ
ورعدٌ رُعدودْ
وفلقٌ جُلمودْ .
ذاتُ الرواعد الربَّهْ .

فادعُ ذات الرواعدْ
وسبِّحِ لصاهَبَّاءْ .

(تسكت الهواتف)

ميمونة

ما صاهبَّى يا غيْلان ؟

غيلان

لا أدري. اسألي الهاتف .

ميمونة

أيّها الهاتف ، ما صاهبَّى ؟

الهاتف

لا تحرّفي. قوّمي الاسم. هو بالمدّ، لا بالقصر.

ميمونة

قد أصلحت : صاهبَّاء. فما صاهَبَّاء ؟

(تعود الهواتف في صوت رخيم تغنى :)

إنها قرنٌ طويلْ
قرن ثور ، قرن فيلْ .

هَلْهَبَا هَلْهَبَّا ،
سُبِّحت صَاهَبَّاءْ .

تتجسم الاصوات شيئا فشيئا فتبرز أطيافاً ، كأحلام النائم في ليلة صيف خِفافاً ، فيدور بها الرقص حولهما طوافاً .

رَبَّةُ اليُبْس .
ربَّة القحط .
تسكن الجبالَ .
الصخرةُ الربَّهْ .
هَلْهَبَا هَلْهَبَّا ،
سُبِّحت صاهبَّاء .
(تذوب الاطياف كتريُّع السراب)

ميمونة

أرأيتَ يا غيلان . الماء إثمٌ وسيِّئة .

غيلان

هذه الاطياف لطيفة . إنّي لَأجِد ريح عود ونَدّ.

لعلّهم يتطهـرون بالعـود لئلاّ يقربوا الماء .

ميمونة

لا يا غيلان . إنهم يتطهّرون بالنـور. بالشمس . بالقيظ . بالنّار .

غيلان

لا أرى المغتسِلَ بالنّار طاهراً.

ميمونة

هي الالفاظ تغرّك . إنهم لا يغتسلون بل يتطهّرون.

غيلان

المحترِق غير المتطهّر . إنّي أراهم فحماً.

ميمونة

ليس أطهر ممَّن احترق فصفّتْه النّار .

غيلان

ما غنّت هذه الاطيافُ الهواتف؟ ما ترين يا ميمونة ؟

ميمونة

هي أَلْسِنَة نبيّ القوم .

(بعد توقف قصير)

هل جُلتَ فيهم ؟

غيلان

ما ذهبت نفسي الى شيء من ذلك . وما هَمّي منهم ؟ ـ إنّما ذهبتُ في الوادي فانحدرت فيه ، ورأيت الهاوية يغور في غَيْبها ماءُ العين ... وقام السدُّ الى عيني . سيكون جميلا رائعا بديعاً اذا ما بنيتُه يا ميمونة .

ميمونة

دع سدَّك المستقبَل وحديثَه ، فانّه لا يلحقك رجالك وبنّاؤوك إلا غداً .

غيلان

ألكِ حديث خيرٌ منه ؟

ميمونة

نعم ، خير وأروع وأهول . للقبيلة نبيّ .

غيلان

نحن هنا كآدم وحوّاء وقد تخلّصنا من وُشاة الجنّة وفضوليّي الملائكة وعيون الآلهة . ولسنا في حاجة الى الانبياء . إنما تُرسَل الانبياء إلى وُلدِنا من بعدنا.

ميمونة

ليس أكره إليّ من تشبيهنا بآدم وحواء ، وليست ولادة البشريّة من شأننا . ألاَ تنسى البدأ والخَلْق ؟ اسمعْ حديث القوم ونبيِّهم فهو أهمُّ عليك ...

غيلان

إذن أسمع ...ولستُ بآدم ولستِ بحوّاء . هاتي حديثك .

ميمونة

ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسِرتُ وجُلت . فكأنّ الوادي وادي البُرْص او وادي الجذام . وانّما كنت أنا البرصاء . فانه لم يقربْني أحدٌ ولا مسّتْني منهم يد ولا دنا منّي كلام . فكأنّني أجول في شُرود

شديد . وكانت اجساد القوم متوتّرة كجَهد الفارّ من سجنه .. ومع ذلك فقد سرتُ فيهم حتى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم . فأنا عند آخر بيت اذ رأيت جارية . وكانت رأتنا عند وصولنا الى القبيلة . وكانت هناك مستلقيةً على ظهر صَفَاة إلى الشمس . وسألتها فقالت انها تتطهّر . وكانت لا تكاد تكون مُعْصِرًا ، ولكنّي رأيتُها مفتّحَة الى الشمس قائمة النهد رخوةً ، كالذّائبة لذّة . وهي التي حدثتني عن صاهبَاء والنّبيّ . وأرتني الربّة هناك على رأس الجبل . ولكنّي نظرت فلم أرَ شيئا فقلت : لا أرى ربّة ولا ربًا . فقالت . لا بدّ من عشرة أيّام صياماً عن الماء لتحتدّ عينك وتستقيم لها الرؤية . فقلت : لست بناقة حتى أصبر عن الماء هذه المدّة . ويئست من رؤية صاهباء . .

غَيْلان

والنّبيّ ؟

ميمونة

لم أرَه كما أني لم أرَ الربّة. وانّما قالت لي الجارية: لو رأيته!.. إن له جلداً أغبرَ اللّون قد شُدَّ على عيدان عظامه كالدلو تُمَشّط شديداً. ووصفته لي حتى تصوّر النبيّ لعيني كطبل مُدَّ جلده مدًّا شديداً. ولكنّها زادت فقالت: لم يرَ النّاس أشدّ هزالاً منه. فأفسدتْ عليّ تشبيهه بالطبل، لانه لم يرَ الناس ولا ثعلب الحكاية أشدّ من الطبول سمنا ولا أضخم منها جثة.

غيلان

وماذا يقول القوم عن السدّ وعنّي؟

ميمونة

ما أقلّ صبرَك! وكيف أعلم ما في نفوس الصُمِّ البُكم؟ إن شئتَ ان تعرف رأيهم في سُدّك فاصبر حتى تُنطِقَهم صاهباء. أمّا الآن فلا لسان غير لسان نبيّهم. وقد حدثتني الجارية عن النبيّ ولسانه، وأنه كثير الاصوات لا تُحصى هواتفه. وقالت: ولسان

النبيّ واصواته رحمة . لانّها تنذر كلّ حيّ بما قضي له من شأن في حياته وترسم له حَدَّه . ثم قالت: فلتصلّي يا هذه لألسنة النبيّ وأصواته . ولم أُصَلِّ لنبيّ ولا لسان ، ولكنّنا سمعنا الساعةَ ياغيلان أصواته ... وإني لأراها تُنذر ...

غيلان

ان كان انذاراً ، فلِمَ جاء في ما سمعنا من الرّطانة؟

ميمونة

(هازئة)

لو جعلتَ مدرسةً لتُعلّم الآلهة البيان ؟

غيلان

انهم يخشون إن تكلّموا لغة البشر أن ينفتح لنا في ألوهيتهم فنُصيبَ شقًّا . فهم يفضّلون ان يترجم عنهم الانبياء ...

(يطرق ساعة ثم يقول :)

لكن دعْنا .

ما تقول يا غيلان؟

غيلان

(محدّثاً فجأة)

أقول ان أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهاد سرابَها، ولبسوا هزالَهم كما تُلبس الحُلَع السلطانية، واتّخذوا لساناً لنيّهم كثيراً كألسنة السعالى، وخشعوا لربّةٍ خافية وقالوا: العطش والقحط، ولِنُتَفِ الماء. يحسَبون أنهم وحدهم يقاسون الظمأ واليبس والقحط، ويحبُونها ويتّخذون أرواحَهم منها. ولكنّي أنا أيضا أحبها وأقاسيها... وإنّما هم قومٌ أَفعمتْ نفوسَهم مياهٌ كاذبة، ورطوبة كاذبة، وسماء كاذبة. وإن نفوسهم لنفوسٌ باطلة الكيان كاذبة. فرُّوا من الفعل عجزاً وبطلانَ نفس. بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب

فتغور مياهها وحياتها في الهاوية بمُنقطَع الوادي .
وانظري مياه المطر لا تسِحُّ الاَّ على الجبل ، كيف تركوها منذ آلاف السنين تسيل فتحدر فتلحق مياه العين فتذهب فتغور في الهاوية بمنقطَع الوادي . ولم يخطرْ لهم ببال أن يقيموا سدًّا فوق الهاوية فيحبسوا ماء العين ومياه المطر والجبل ... واني لأرى سِدّي بين يديَّ وأرى المجاري . وأرى الانابيب ممتدّةً فوق الهاوية جسرًا حديدًا يهزأ من الهاوية متدافعاً الى الوهاد .
واني لأرى المياه متدفّقة غالبة قاهرة ، تتدافع اليك تدافُع المتمنّى يُزف اليك بنفسه . وليكنِ الخلقُ ولتكثرِ الولادة !... هذه الارض المتجعّدة المغبار كالعجوز الفاجرة ، لأُحبلنَّها ماءً ، فاملأنَّ بطنها فأخرجَنَّ حياة . وسترينَّها يا ميمونة يومئذ ، وسترينَّهم معرضين عن صاحباء والشمس والقحط ، ينبذوها في العراء . وسترين الجارية يومئذ يقوم نهداها شهوة تتبرَّج للماء ، ويشملها الماء ولا تنفتح

لشمس . وستريّنهم يطرحون شمسهم في مياه السدّ الغامرة الهادئة . ويذهب الماء بصاهباء وقحطها ونبيّها...

ميمونة

قد سمعتُ كلاماً كـكلام الاصوات الهواتف . أَوَ أَعْدتْك يا غيلان ؟

غيلان

أمّا تلك فلا أرى لها غير بائع بَبَّغاوات يُتاجر بها .

ميمونة

انّي أراها تنذر يا غيلان ...

تملك ميمونةَ خواطرُها ، ويملك غيلانَ الفكرُ في سدّه . وينعزل عنها وتنعزل عنه ...
ويخطر فوق رأسيهما طائر غريب فيمرّ سريعا أسودَ ، فلا يَطرَفان . فيعود فيمرُّ فوق رأسيهما سريعاً أسودَ . هامةً او صدى ....

ميمونة

(مقشعرّة)

ألاَ ندخل الخيمة ؟ إنه ليس أكره إليَّ من طلائع الليل الطيورِ الممتلئة ظلاماً .

غيلان

الخيمة ؟ لا بُدَّ من ضربها قبل دخولها ... أترين يا ميمونة التشاؤم والطيرة ؟

ميمونة

(بصوت خافت ونفسها الى غير ما تقول)

التشاؤم والطيرة ؟

(تقوم وئيداً وتقصد الى الخيمة تريد أن تضربها)

غيلان

لابدّ أن تكون انقلبت الاصوات الهواتف طائراً . او كأن طيور هذا الجبل اذا ماتت لا تتعفّن ولا تفسد، بل تجفّ وتيبس كالقديد. ويُتّخذ منها لأمثالنا كالفزّاعات تُنْصَب في الزّرع .

يقوم غيلان . فيعود الطائر ويمرّ أمامه ويصيح صيحةً ثقيلة سوداء كالوحْل . فيضربه ضربةً تطرحه على الارض . ويضحك الطائر . ويَعُمّ الدنيا شيءٌ من الظلام قليل كالغيْبة أو كالبُحّة .

غيلان

دعي يا ميمونة الخيمة .

(يهمّ بالانصراف)

ميمونة

إلى أين ؟

غيلان

نطلب فرجةً وفُسحة .

يذهبان فيبقى البغل وحدَه . ثم يخرج بعد ساعة من وراء حجرة حمراء حيّةٌ طويلة غبراء ، فتثنّى ساعةً حول الطائر مطروحاً وتحفّ حفيفا . ثم تنشب فيه أنيابها ، ثم

تذهب به تجرُّه . ويسمع عواءُ
ذئب ثلاثاً طويلاتٍ كالنحيب . ثم إذا
وقع اقدامِ قومٍ قادمين كضرب الطبل
يرجّ الارضَ رجًّا . كالجيش العظيم
وليسوا جيشاً .. ويرهف البغل
أذنيه . وتنصبُّ ظلمات الليل ....

المنظر الثانى

يدخل جماعةٌ من الرهبان قَوَمة صاهبَاء . في خشوع ذُلٍّ ومِشية قهقرى . ستّة وفيهم مشعل وسابعهم طَبل . ثم ستّة وسابعهم إناء ماء . مشتملون ببرانيسَ أسباط . وليس يبدومنهم الاّ الرؤوس ناتئةً كالعناصل وقد نبتتْ في قللها خصالٌ من شعر سوداء، مرسلةً كضفائر النساء، وسالت منها اللحَى غزيرةً كثيفة شعثاء. اولئك قَومةُ صاهبَاء، وسدنةُ بيت النار والماء، يدخلون فيظنّ البغل أنه المسْقَى، ولكنّهم يجعلون الماء أمام الكهف وسط الفناء . ويستديرون حوله ، وعين البغل مشتهية ناظرةٌ حيرى، ثم يبتدىء التّرتيل ويبتدىء الدعاء . وتقوم الغوْغاء . فتسير الهوينا :

سُخْرُ ماءِ الهَبَّاءْ .

سُبِّحَتْ صَاهَبَّاءْ .

هَلْهَبَا هَلْهَبَّاءْ .

سُبِّحتْ صَاهَبَّاءْ .

ثم تسرع وتشتدّ . والاصوات تحتدّ . والاعناق تمتدّ . والطبل يهدهدْ . دُعاءٌ في رطانة . وكلام بعيد المعنى :

ضَمُوحٌ قَذِرْ بِضَوْءٍ غَمِرْ .

سَهِيدٌ يَشِرْ رِمَالَ الدِّمَاحْ .

شِضَاضاً عَمِدْ كَهِيبَ المَرَدْ .

تُمَفِّرُ طُرِدْ بِطَخْرِ الكِرَاحْ .

لِكَيْفٍ بَرِمْ لِرَفْضٍ قَدِمْ

لِمَاضٍ طَغِمْ لِدَأْفِ الجِرَاحْ .

هِيَمْرٌ ضَخِلْ وَقَافٍ مُغِلْ

يُنَبِّرِي الدَّغَلْ بِكَسْفِ الرِّمَاحْ .

فَهَاتِ الصَّلَنْدِي وَدَوْفِ الرِّيَاحْ

بجُبْءِ الرُّوَيْدي وسخْطِ الضّراحْ .

يسكتون فيَتْفَلِقُ الطبل ويقوم صوت صاحبه كالزبانية :

سِحْرُ ماءِ الهَبَّاءْ
سُبِّحَتْ صاهبَّاءْ
هَلْهَبَا هَلْهَبَّاءْ
سُبِّحت صاهبَّاءْ

فيجيبونه في صوت همهمة :

هَدْهِدِ الهُدْ واسْدُدِ السُّدْ
وانْقُضِ المُدْ واصْعَقِ الرَّاحْ

ويعودُ إلى طبله يُرْعِده ، والى صوته يرسله سريعا ضخماً شديدا ، يثنّى كموجة غيض :

صغابُ الهَوادمْ وصخْرٌ صَلادمْ
مِدرَا دافِقْ ظَنْوَى غَافِقْ

بَرَكُمُ الضَّناهِمْ كَعَفْرِ الجلاَهِمْ
غُمْيَا دافِقْ فَضْوَى غَافِقْ

ويَمسُّ الصلاةَ والدعاءَ مثلُ اللّهب ، وتتحرّك الريح وتخْفق. وتَقُوم البَرانيس فتهتزّ ، وتأخذ في رقصٍ وإيقاع ، ورعدٍ وإرجاع . حوافرُ خيل ووقعُ جُموح ، كَقَسْوة الصخر او شِدةِ الروح ، وتتعالى الصيحات بـ :

«هَلْهَيا هلهيّاهْ سَبَحت صاهبّاء»

وتنقبض الوجوه ، وتنتشر الذعاف كالظلمات . وتجعل البرانيس تُغربل وترحي ، رفيفَ « الطائر الميمون»، كأنّها سرابٌ مجنون....

ويقول البغل :

البغل

عواءُ الذئاب يُسْتَجاب ام لا يُسْتَجاب ؟ سأسأل غيلان ربّي. لكنْ أذئاب ؟ أم أطيافُ خالي العصور

في تيه العذاب ؟ أم كلاب ؟ أم صخورٌ وأمواجٌ واضطراب ؟

ولا يهمُّ الرهبانَ ما تقول البغال ، فهم في شدة الغيض وعنفوان اللهب ، يضربون الصدور ويُحنون الظهور. والطبل يُدَمْدِم ، واصواتهم تُهَلْهِب وتُهمهم. يدعون صاهبًاء. يسألون للماء النار ، وللسدود الدمار ، وليَديْ غيلان ان تُتَبَّا . ولا تبطىء بالاجابة صاهبًاء. فيحترق ماء الاناء ، وتتصاعد رُوحه ، فاذا حَفيفٌ ، وجوهرٌ نارٌ لطيف ، كعَيْن الآل خَفيف ، فتسكن البرانيس ، ويخفت الطبل ، ويركعون لصاهبًاء. وتتباطن الاصوات ويهمسون حمدًا :

مَرُوتُ عَذَابْ أَكِيلُ تُرَابْ
عَلَى قَوْس قَابْ من مُفْتَنَاهْ
رَمُوضُ مَطَاحْ عليه بَرَاحْ
وَسَبْعُ رَصَاحْ في دَوْفَنَاهْ

ثم يقومون ، ويتحرّك الطبل سبعاً
في مثل ارتعاد العربد، ثم يختمون
بالهمس :

كِسَفْطُ الغُرَبْ رقُوفُ الصَّلَبْ
فَاتِي الدِّيَاحْ
مُنْطَاءُ لِلصَّبْ يَنْبُو وَيَنْكَبْ
غَادِي الجِرَاحْ
يَا هِلْهِلَ الهَبْ يَا طَالِبَ الرَّبْ
هَذِي القِرَاحْ

ثم يخرجون ستة وسابعهم طبل ،
ثم ستة وسابعهم نعيق البَغل ،
ويتركونَ إناءَ الماء ، تخفق عليه
روح الماء صافيةً زرقاء ،
ويبقى دويُّ «هَلْهَبَا هَلهبَاءْ» مُعلقاً
بعدهم في الهواء كدُخان بَخور ،
ساعةً ، ثم تسكن الارض والسماء،
فاذا ليلةٌ ليّنَة رزينة مَلاى ،
كَحَمْل حسناءَ حُبْلَى ، وشفقٌ

كالفجر وشفةُالليل عذبة ، ونـومٌ
كالدهر يُفْعِم الليلة ، وخلوٌ كالنجم
والنجم نعمة.
ولا يعود غيـلان وميمونه الا وقد
ذهب من الليل ....

المنظر الثالث

بفناء الكهف وقد بدت فيه الخيمة مضروبة . الساعة اول الفجر ، وقد انتشرت أشعّةٌ نديّة في سماء رطيبة كالعجين ، ولاحت الصخور والحجارة ليّنة وَرْديّة .

تخرج ميمونة من الخيمة في مبذل كسكب الماء رقيق شفّاف ، وتجلس على صخرة أمام الخيمة . ثم يخرج غيلان بعدها .

ميمونة

(ناظرةً الى السماء والفجر)

هذا الفجر يا غيلان ، وهذا النور كأشهى الطعام .

ينظر غيلان الى السماء والفجر ولا يقول شيئاً ، ثم يجلس قرب ميمونة وينظر الى الافق الشرقيّ .

ميمونة

لقد رأيتُ الليلةَ رؤيا .

غَيْلان

« يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »

ميمونة

لا يا غيلان . ليس هذا .

غيلان

كنت أحسب أنك نسيتِ كل توراة وقرآن وانجيل. أَمْ تَرَيْن من ظريف المزاح التشبُّه في الفجر بالانبياء ابناء الانبياء؟ هم يرون الرؤى لِيُلقَوْا في الجُبّ ويكون لهم شأن مع امرأة العزيز فيصيروا انبياء . أمَّا انت ؟ ـ الفجر ساعة جِدّ تكره المزاح .

ميمونة

ليس بمزاح .

غيلان

لكن ما شأني وذاك وما الدّاعي الى التبكير بذكره ؟
أنا لا أعبر الرؤيا .

ميمونة

لانه حقٌّ أني رأيت رؤيا ...

غيلان

هذه البلاد ما أكثر الاحلام بها والارواح ! وما أكثر الاصوات والانباء ! دعينا يا ميمونة ، ولننتظرْ أصحابنا . فانهم عمَّا قليل بارزُون من اثناء الارض طالعون مع الشمس من الأفق .

ميمونة

... ولأنني لم أرَكَ في رؤياي يا غيلان .

غيلان

إذن فما همّي من رؤياك ميمونة ؟ أدخليها في قرآن او إنجيل او يعيها نَبِيُّ القوم .

ميمونة

ما همَّني من رؤياي إلا خلوها منك ..

كأنك تخاف ان اقصّ عليك رؤياي ؟

غيلان

(هامًا بالقيام)

ان كان لا بُدَّ أن تقصّيها ، فهل لك ان أدعو الاصوات الهواتف تسمَعْ اليك .

ميمونة

أنْ تسمع الاصواتُ أمرٌ عُجاب. ادعُ نَسَر .

غيلان

.....

يريد غيلان ان يدعو إلا أنه لا يخرج من فيه صوتٌ ، وما هي الا حركة المنادي يُفرغ صدرَه ويمتلىء حلقُه ولا يكون تصويت .

ميمونة

ما لك ؟ ألا تدعو الاصوات ؟

غيلان

(متحيّرا مضطرب النفس)

لم أقدر على التصويت . أنادي ويتحرّك الصوت في حلقي ثم كأنّ شارباً يشرب الصوت على فمي .

(يحاول ثانيةً أن ينادي)

هل سمعت شيئا يا ميمونـة ؟

صوت هاتف

إنك العاجز . إنك العجُز .

(يرتعد غيلان ويقفز)

ميمونة

لا يا غيلان ، ما سمعتُك ولا استطعْتَ النـداء . وإنّما سمعتُ الهاتف . فاذكر يا غيلان قولَ الحسناء عابدة الشمس : « ولسان النبيّ واصواته رحمة . لأنها تنذر كلّ حيّ بما قُضي له من شأن في حيـاته وترسم له حدّه » .

هذا يا غيلان أول الحدّ .

غيلان

(في شيء من الحدّة)

ليس في الحدود والعراقيل حدٌّ واحد ولاعِقال واحدٌ يعجز عن كسره العزم . قُصّي رؤياكِ ميمونة ...

ويزيد فيقول : « وأما الاصوات الهواتف ونبيُّها وصاهبّاؤها فعليها لعنتي لعنة الانسان ». إلا ان الصوت يموت ويتبدّد في حلقه ، او يموت في صدره ، فلا تُسمعَ لعنتُه.

... عجّلي ، قُصّي رؤياكِ .

ميمونة

إنّي رأيت السدّ .

رأيته أوّلَ رؤيتي عن بعيد ، فاذا هو قطعةٌ من البياض المتين ، متعالٍ عظيم وقائم مستقيم ، كالمجرّة في كبد السماء .

ثم دُفِعتُ إليه حتى قام في وجهي ، وعُلّقتُ فوق

الهاوية مَغيض الماء . فنظرت وَيلًا شديداً وهولاً . ورأيت الماء غائرا في الهاوية ، أصواتاً مشتبكة كأنها أصوات الهاوية ، واقعا فيها كالحلم او الخيال او الامنية تقع في الابد فتغيض فيه... ولا يردُّه السدّ . ولا يحبس منه شيئاً ...

غَيْلان

(هازئاً)

وهذا أفظع ما يمكن ان يصيب سدًّا : أن يكون سدًّا ولا يحبس ماء .

ميمونة

... ولم يكن السدّ من حجارةٍ وحديد ، ولا من جصّ وطين ...

تتوقّف ميمونة كالمتردّدة في الامر تقول أم لا تقول ، او كالفازعة . لحظةً . ثم تقول بلهجة مُتَّئدة :

لقد رأيتُ امراً بديعاً عظيما ومفزعا هائلا ليس فوقه

هول. رأيت سدًّا من جماجم موتى قد رُصِّفت أكمل ترصيف ..

غيلان

(هازئا أو جادًّا)

منذ القِدَم كان الموتُ الكمالَ يا ميمونة : كمالَ الترصيف والترتيب . كمالَ النظام . وانما التشويش في الحيّ وفي الحياة .

ميمونة

... ورأيتُ الماء جاريا من الجماجم سائلا من ثقابْ العيون منصبًّا من غيران الافواه والمناخر كالمخاط او كالغراء ... ولم أر هولاً أهْول من بقبقة تلك المياه في جماجم الموتى. وصرختُ روْعاً : «يا غيلان أغثْني». فأجابني هاتف يقول : «تدعينه ولمَّا تُوافنا جمجمتُه». ثم انصبَّ عليَّ شيء ثقيل قِذرٌ مثل الكابوس ، فدكَّني دكًّا ، وصحتُ صيحات الفزع والالم . ثم إذا الجبل أمامي يتحرك وتمتدُّ يداه ، فيدفع

الجماجم دفعاً دَوِيًّا . واذا الجماجم تنفلق في شبه الصيحة وتنفرق ، وتَطايَرُ كقصف الرعد يفتضُّ سماءً بكْراً . واذا الجبل يتقدّم نحوي وشعوره عليه تخفق أشجاراً شهباء . واذا آلاف الطيور السوداء تخرج من تلك الشعور ، فترتمي كحجارة من سجّيل في الهواء . ويُعمّي الجوَّ غبارٌ من كبريت وغيوم صفراء . وجعلتُ يدي على وجهي وصرخت صرخة الحرقة . وذهب الجبل فانتفخ وانتشر وترامى ، فاذا هو فجأةً يقع على السهل والوادي فيدكّهما دكًّا ويرحيهما رحيًا ...

واستيقظت ... فاذا هذا الفجر علينا ، واذا يدك على خدّي ترعى نعومة وجهي .

غيلان

(بعد إطراق قليل . في شيء من القلق)

لِمَ أبطأ أصحابنا والعملةُ والآلات الى الآن ؟

وتنفجر الشمس فتثبتُ أشعّتها في

الافق الشرقي كاوتاد من نور قائمة
صلبة، او كـأذني فـرس أرْهَف
يستمع صوتاً بعيداً .

غيلان

(وقد فكّ طلوعُ الشمس عقالَه)

هذه الشمس ! وها أصحابنا وهـا الآلات ! جيشا من السواعد والحديـد والايـدي والدواليب والعـزائم والصدور !

ميمونة

(مُشيرةً إلى إناء الماء الذي كان تركه)
(بالفناء سَدَنة صاهبًاء، وكأنّهُ لايزال)
(يخفق عليه طائف من النار)

وهذه النار لا تنطفىء !

أنحن غالبون ام يا غيلان مغلوبون ؟

غيلان

(يقوم فَرَحاً وعزماً)

قُومي قَبِّلي يا ميمونة جمجمتي . يا ميمونتي ويا شكّي وحيرتي .

تقوم اليه فتُقَبِّله ويقبّلها . ثم يدخلان الخيمةَ فيلبسان ثيابهما ثم يخرجان فينحدران في العقبة ذاهبين نحو الرجال والآلات الطالعة مع الشمس. ويبرز رأس البغل من وراء صخرة يحرّك فكّيه .

المنظر الرابع

بنفس المكان ، بُعيْد انصراف ميمونة وغيلان. حجراتٌ ثلاث تتحرّك فتتصوّر قليلا قليلا جواريَ ثلاثا ، كما يتصوّر الطين في يد الخزّاف . ثم تتحرّك كالنوائم تستيقظ وتُزيحُ النومَ والغطاء، وتتسلل الحجرات من النوم والسكون مثاقلاتٍ متثائبات . ويسقط عنها غطاء الغبار ، فتقوم وتفتح ابواب السماء وتنحيّ عنها سجف الغيوم ، وتتمشى قليلا ثم تدعو بشراب الفجر وطعام الصباح. ويتساءل البغل : ما عسى أن تأكل الحجارة في فطور الصباح ؟

الحجرة الاولى

(فتاة ليّنةٌ حمراء ، شعرها كالفجر)
(وعيناها سماء .)

ما رأيتُ أغرب من شأن هؤلاء الغرباء .

الحجرة الثانية

(وهي التي كان غيلان جالساً عليها .)
(فتاة كالاولى ، لكنّ لالينة ولاحمراء ،)
(بل صلبة شديدة ، هاجرةٌ في)
(صحراء .)

وما الذي نعلم عنهم ؟ أنا لم أر شيئا . أنا لا أعرف منهم الاّ الاعجاز .

الحجرة الثالثة

(وهي التي كانت ميمونة جالسةً)
(عليها . فتاة لينة حمراء ، كالاولى)
(اختها الكبرى .)

لعلَّ بنى آدم يجهلون التصلُّب واليبس والشدة والقوّة . فاني لأجد عجز هذه المرأة مسترخيا أيَّ استرخاء . وإني لا ستقذر اللين والشحمَ الاسترخاء .

الحجرة الثانية

كذا البشر جميعا يا دِيَادَا . يكثر أنْ يُثقِلوا أحمالَهم

بالفضلات والزوائد التي لا تنفع ، من لحمٍ ولين وعقل وشحم واسترخاء وماء ... وليس التصلُّب سهلًا دَيادَا .

الحجرة الثالثة

(للحجرة الاولى أختها)

وكيف يمكن او يطيب للبشر النومُ واجسادهم مسترخية هكذا ؟ لا بُدَّ ان يكون نومهم نديًّا ثقيلًا غراء .

الحجرة الاولى

البشر لاينامون أبدا . وليس الا أن يظنُّوا أنهم نائمون يا ديادَا . وما نومهم الوحيد الا الموتَ وراحتُهم الواحدة . والموت نوم طويل يكاد يدوم أبدًا . لا يستيقظون منه الا وقد ذهب الجسم تراباً وبِلى . فاذا استيقظوا كرهوا أطلال الجسم منزلا . فيغضبون ، فيعملون ما يعمل المُكترون يُخرَجون من مساكنهم قهرا : يجوبون طرق الدنيا ويحنقون ويحقدون

ويصرخون ، فيمتنع لصراخهم عن الآلهة الكَرَى ؛ فأرواحهم نواميس السماء ...

الحجرة الثانية

وهو ما يسمُّونه الآخرة والحياة الاخرى : هو أن تلكع النواميسُ ارواحُهم آلهةَ السماء ، فتحيِّرَ نومَها وتُعديها بالحُمَّى ...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

قولي لنا يا أُخيَّة: ما يريد هؤلاء الغرباء ؟

الحجرة الاولى

يا شوقاً الى العلم ، يا لين الروح ديادا ، ما تريدين ان يكون ؟ انهم لا يريدون شيئاً . انهم يتوهّمون أنهم يريدون ...

الحجرة الثانية

كذا البشر يا ديادا . لا يهوَوْن الاّ الاوهام ولا يُغرَوْن بغيرها . وما من شيء ، ولا من مخلوق ، ولا

من حيّ ، الا ويتّخذ من حياته أهواءً وعاداتٍ شاغلة. فالآلهة من دأبها أن تخلق العوالم ثم تنزوي فتشتغل بلعب الشطرنج او النرد لتزجية الدهور . والشمس من دأبها أن تنير ، والحمير من دأبها أن تنهق وتشهق، ونبيّنا من دأبه أن يجمع فيذّخر الاصوات . والبشر من عادتهم أن يجمعوا الاوهام والمعتقدات : يؤمنون بالله وبالشيطان ، وبالانس والجان ، وبالقبح والجمال ، وبالطبّ والموت ، وبالدنيا والآخرة ، وبالعدل وبنات السعالى ، وبالقوّة والخمر ، وبالعمل وتمائم السحر ، وبقدرتهم والسدود في الصحاري . انهم لمّامون جمّاعون ، باللمّ والجمع مولَعون . كأنّهم رُواةٌ او محدّثون ...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

هؤلاء الغرباء يا أخيّة ماذا يريدون ؟ ماذا يَهمُون أنّهم يريدون ؟

الحجرة الاولى

هؤلاء الغرباء أنفسَهم يطلبون ...

الحجرة الثانية

لانّهم لا يعشقون غيرَها يا ديادا ، ولاَ بِهم علّةٌ غيرها ولا باطنُ داء . وانه ليتخنّث الرجال فيقعون للرجال . تقرُّباً من انفسهم وتفانياً فيها . ولا تقربُ الرجلَ البِكرُ العذراءُ الا وقد لمستْ نفسَها ومرست جسمها وطعِمت بكارتَها والتذّت الى البكاء ...

لذا ابتدع البشر المِرآةَ ديادا .

الحجرة الثالثة

(ذاهبةً في الوان من المعاني)

انفسَهم يطلبون؟ هم اذن أوساعٌ وأبْعاد لاتُحدّ...

الحجرة الاولى

نعم يا ديادا . نعم ولا . فأَضْيق مكانٍ يكون سماء . وأقصرُ خطٍّ بعيدَ المدى ...

الحجرة الثانية

نعم، اذا قصر عن غايته البصر ، اذا عشِي الرائي عن منتهاه ...

الحجرة الاولى

انظريهم يا ديادا .

(تنظر ديادا نحو السدّ)

انظريهم عند الهاوية بمُنْقَطَع الوادي . انظري كيف يسيلون عرقاً ، ويَجْهدون أنفساً ، وتترامى قواهم عن أجسادهم كشَرَر النار عن النار . انظري آلاتهم تدخّن وتسودّ . ودواليبَهم تهزّ وترتجّ . انظري جباههم أَنْتأَها الجدّ والجهد، وأيديَهم أَدْمَتْها الصخور الصمّاء .

انظري العملَ يبتدىء وتوهُّمَ القوّة كيف يكون...

(تنظر الحجرات الثلاث معاً نحو السدّ)

كذاهم . لم يقصُرْ فكرُهم عن شيء مثل قصوره عن ادراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاسلام .

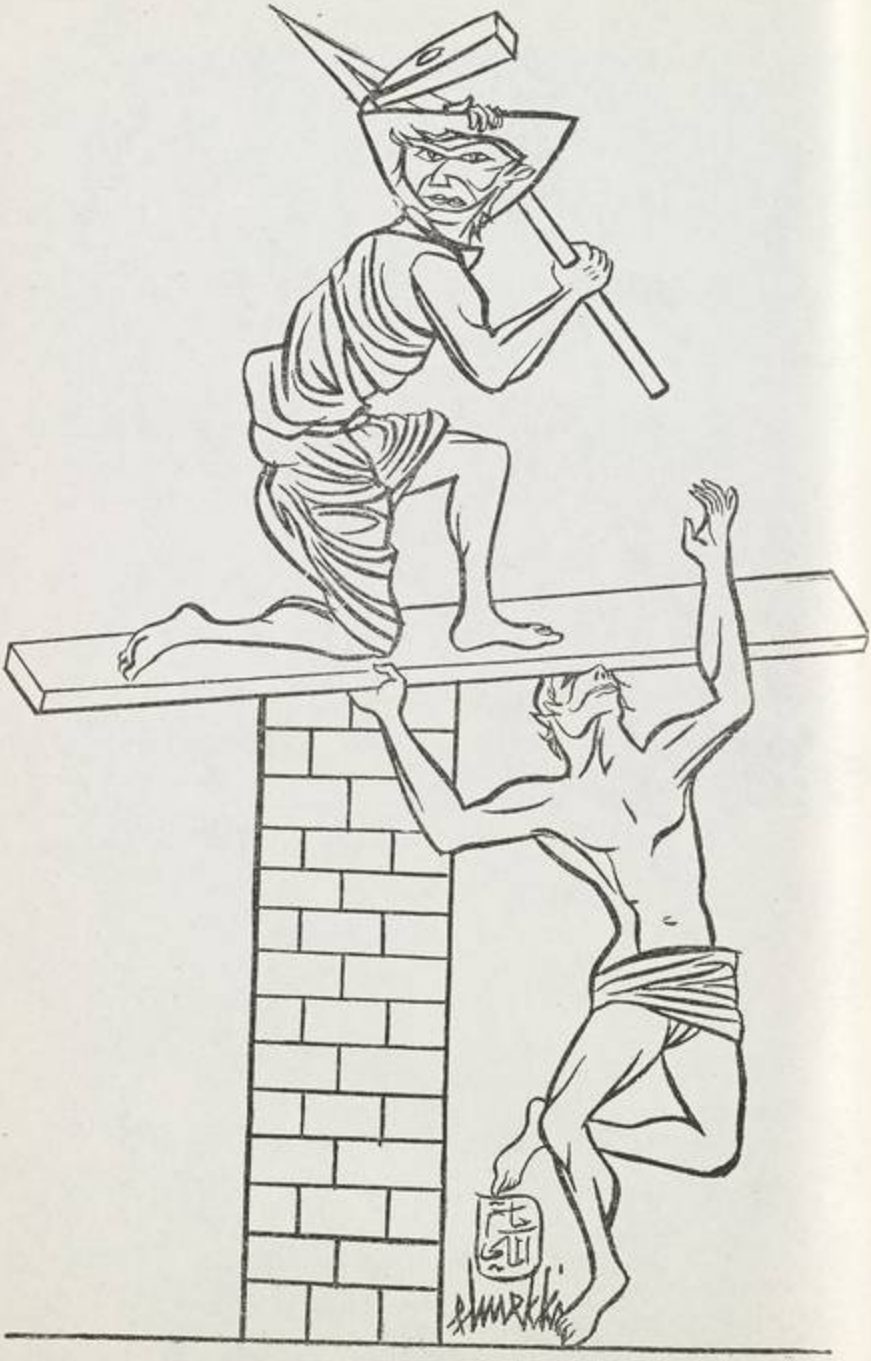

هم مُفعَمو النفوس إيماناً وإقداماً وحبًّا للجهاد . وإنهم لسُكارى : يريدون أن يخلقوا . يريدون أن يشبعوا الارض ماءً ، فيصيبوا منها اشجاراً ونباتا ، وحدائق غنّاء ، ومروجاً سمينة ، وعشباً ريّانا ، وثماراً لذّةً ذوْباً ، وأزهاراً منفجرةً ماءً ...

الحجرة الثانية

نفوسُهم أبعدُ ما يكون عن نفس الزيتون يعضُّ القحطَ ويسقي .

الحجرة الاولى

(تستتم كلامها)

... يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا العجْز . ولكنّهم لن يجدوا الى خلق العاصفة وجهاً ولا الرعدِ والزلازلِ والبرق . لن يستطيعوا الى الخلق سبيلا .

الحجرة الثانية

(مرتّلةً انجيل صاهبّاء)

اعوذ بصاهباء من الانسان الرجيم :

« وأهوينا على السحب بمعول من صخر وقلنا للارض
« كوني . فوضع السحاب ارضاً من صخرٍ وشدّة .
« إنّي أنا الخالقة الربّة.
« ثم جاءتنا الملائكة فسجدتْ وقالت : الارض صخر
« ولا حياة فيها ، صاهبّاء. فأمرنا العواصف والرعد
« والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانفلقت جميعا
« ودوت دويًا. وأرسلنا الصاعقة فشقّت صدر الارض
« واودعتْه حياةً حيّة .
« وقام الكون فسبّح باسمي ، إنّي أنا الخالقة الربّة.
« ثم جاءت الملائكة ساجدين فقالوا : شعَر الارض
« الاشجارُ ، ودماؤها الماء ، ولا حياة فيها صاهبّاء .
« فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق
« والزلازل والهدّ فانفلقت جميعاً ودوت دويًا . وأرسلنا
« الصاعقة فشقّت صدر الاشجار وقلب الماء واودعتها
« حياة حيّة .
« وقام الكون فسبّح باسمي ، إنّي أنا الخالقة الربّة .

« ثم إنّا أثرْنَا في العالمين نقْعاً ، وصفعنـاها صفعـاً ،
« وهيَّجْنَا الأكـوان تهييجـاً ، وهزَزْنـاها هزًّا ،
« ورَجَجْنَاها رَجًّا. فوضع الانسانَ الرعدُ والصاعقة
« والبرق . وقلنـا : يـا آدم أخرُجْ من ضلع العاصفة
« الريحِ والصاعقةِ الرعْدِ ، وكن فيها النورَ والنـار
« والبرق .

« وقام الكون فسبِّح باسمي ، إنّني أنا الخالقة الربّة .

« وقلنا : الانسانُ آخر الخلق. ثم قلنا : يا جبال انْتَئِي
« وتعالَيْ. فقامت فأعلينا علاها. واستويْنَا على ذراها.
« وتصلّبنا أبداً صخرًا . وأمسكنـا الرعد والبرق
« والصواعق الصعقاء . وأقررنا الكون إقراراً .
« وحبسنـا في صخر الجبال الزوابع الصلبة . إنّني أنـا
« الخالقة الربّة .

« وجاءت الملائكة فقالت : إنه قد نسي الانسانُ اسم
« صاهبّاء ... »

الحجرات الثلاث

(معاً)

صَدقتْ صاهبَّاءْ .

هلهَبَا هلهَبَّاءْ .

سُبِّحت صاهبَّاءْ .

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

ألاَ نذهب أُخيّة ، يا حِلم ويا رحمة ، فنهمسَ إليهم بحكمة الحجارة الصلبة ؟ هيّا نُعَلِّمهم حكمتَنا الحقَّة ، لا يُحوِّلُها شيء ولا تصفقها صفقة ، لا تتحرّك ولا تسكن ولا تفنى ولا تبقى : دوامٌ في الروح وسرمدٌ باطن .

هلمّي نعلّمهم ، ونمنحُهُمُ السكون واليبس والراحة ، ونهدِهم الى الدَّعَةِ الجُبْنِ والحكمةِ الصلبة ، وترك الجِدّ والجهد ومعاندة الربّة .

صوت هاتف

اهلَ الوادي قَومَ صاهبَّاء . اسمعوا النبيّ .

(تسكت الحجرات الثلاث ويصغين ويخشعن)

أمرُ النبيّ .

حُرّم عليكم أن تقربوا الغرباء .

أو تكلّموهم .

أو تعينوهم .

الحجرة الثانية

(همساً لاختها)

تُرى أقرَّر امرَه باغلبية اصواته أم بالاجماع ؟

الحجرة الاولى

(همساً)

اسكتي ، لاتبوحي بسرّ الآلهة والانبياء، سرِّ حكمتهم وسياسة السماء .

البغل

(يحدّث نفسه)

أما انا فقد سمعته وسايعه لغيلان ربّي .

صوت هاتفٍ ثانٍ

أيّها الناس اسمعوا وعوا . واذا سمعتم فاكتموا .

الحجرة الثانية

(همساً لاختها)

امّا هذه فسرقةٌ غير خافية . سرقها النبيّ لقس بن ساعدة .

الحجرة الاولى

(همساً)

اسكتي ، فقد يسمعك الهاتف ويغتاض النبي. اسكتي وتصلّبي .

تسكت الحجرات الثلاث ويهمسن :
هلهبا هلهبّاء ، سبحت صاهبّاء . ثم يسكتن ويرقدن وقد تصلبّن وعدن حجرات ...
ويسمع زلزالُ عملِ البنائين ورجال غيلان بمنقطع الوادي ، يحرّكون ويرفعون ويصرخون ويجهدون .
ولاتعود ميمونة منذ يومها . ولا يُري

كاملَ النهار أمامَ الكهف والخيمة ،
الاّ الحجراتُ تتململُ ساعة بعد
ساعة فيسقط عنها بعض الغبار ،
كأنّما ينغّص نومَها دَويُّ الصخور
والمعاويل والآلات والدواليب ...
ويقول البغل :

البغل

(كالرّاجع من تفكير بَعيد)

اذا أصاب الحجارةَ جنونٌ انقلبتْ جواري. إنّ جنونَ
الجماد الحياة .

المنظر الخامس

في صباح يوم من الايام... وقد مضى على أول القصّة ستة اشهر وكاد يتكامل السدّ .
يُرى غيلان واقفاً أمام الخيمة ينظر نحو السدّ . ثم يلتفت نحو الخيمة ويدعو ميمونة .

غَيْلان

لو أسرعتِ يا ميمونة . إني أرى أصحابنا مقبلين الى السدّ ، وأحبُّ أن تنظريه في سكونه وعظمته قَبل ان يشرعوا في عملهم ، ويقوم الغبار ، وتعلو جلبة الرجال، وتدوي زلزلة الصخور ، ويتنفّس السدّ أنفاسَه الشديدة .

ميمونة
(من داخل الخيمة)
أَوَ تخاف أن لا أقدر عليه في زلزلته وأنفاسه ؟

غيلان

نعم يا ميمونة . لأنّك لم تتعوَّديه .

ميمونة

(وهي بارزة من الخيمة)

مَنْ لم تُخِفْهُ الجبالُ لا يخاف السدود . أنا اليك .
هذه العقبة .

تـاخذه من يده وتسلك به العقبة .
فيذهبان كالمنحدرين الى السدّ.

غيلان

ما رأيتُكِ من يوم نزلنا هنا أنشطَ من هذا الصباح...

ميمونة

(متضاحكةً)

لأمرٍ ما في النفس يا غيلان كان النشاط .

غيلان

وقد أَبيْتِ إلاّ اليوم أن تنزلي إلى السدّ .

ميمونة

لأمرٍ في النفس يا غيلان كان الاباء.

غيلان

لكنّه لاينشط ياميمونة الا المؤمنون. اني أراكِ منت.

ميمونة

لا أدري أ آمنت أم لا . لعلّني آمنت أو سكنت .

غيلان

مستحيلٌ أن أسكن او تسكني . لان حياتنا مُفعَمة عقباتٍ وثنايا وارتحالاتٍ واسفاراً ، خلوٌ من كلّ وصولٍ ونزول ، وكلّ قرارٍ وسكون ...

ميمونة

هذا أنت تقوله .

غيلان

وانت ما تقولين ؟

ميمونة

لا اقول شيئاً . وإنّما اريد أن أرى السدّ .

يصلان الى مُنعَطف من منعطفات العقبة يشرفان منه على السدّ بمنقطع الوادي فيقف غيلان وتقف ميمونة.

غيلان

انظري ...

ميمونة

(تلتفت الى صفاة عظيمة على يمين العقبة)

(مُعلَّقة في الهواء فتقصد اليها وتقول)

هذه الصفاة كالسدّ معلّقةً في الهواء تدعو الى الجلوس. وأحبّ أن أعرف هل يجد القائم على المعلّقاتِ في الهواء دُوَارًا ، وهل تجد يا غيلان دُوَارًا إذا قمت على سدّك المعلّق في الهواء .

تذهب فتجلس على الصفاة ، وتصرف وجهَها الى الابعادِ والسدّ تحتها واعماقِ الوادي .

غيلان

(منكراً لقول ميمونة)

السدُّ راسخ الأصل في الارض .

ميمونه

السد معلَّقٌ في الهواء .

غيلان

أنت مجنونة .

ميمونة

كذلك تقول الجِنَّةُ للجِنِّيَّة منهم ترى ما لا يرون :
أنتِ مَأنُوسة .

غيلان

ألا تَجِدّين ؟ بل انظري السدّ وعظمته القائمة .
انظري الصخور قامت فغلبت صاهباء والقحط والجبل.
انظري المياه مُتَّكِئَةً إلى السدّ، تترقّب ان تُروِي وتُحيِي

ميمونة

ما كانت المياه يوماً في حاجة الى الاتّكاء . المياهُ من شأنها أن تجري وتجرف ، وما عرفتُ مياهاً كَسْلَى . الماء من أنشط المخلوقات . فلا تَتَّهم الماء بحبّ الاتكاء والراحة .

غيلان

لقد طلبتُ مراراً فلم أعرف ما سبب تحاملك على

السدّ . فما تريدين ؟ ما تعنين ؟ مالك والسدّ والفعل والخلق ؟

(لا تقول ميمونة شيئاً وتبقى مطرقة)

ومع ذلك ها إنك تنظرين السدّ ...

ميمونة

أيّ سدّ يا غيلان . إني أفكّر ...

غيلان

وفيمَ هذا الفكر الصارف عن السدّ . القاطعُ للكلام .

ميمونة

في الصدق . في التجرُّد . في العَرَاء ...

(يخفق غيلان برأسه كالمتضجّر)

... لو سألتُك يا غيلان ان نظلّ يوماً بالكهف ، وأن تنزع الثياب وأدعَ الثياب ، وان نقضيَ معاً يوما عارياً خالصا طاهراً ، لا يفصل بيننا كلام ولا حركة ولا ثوب ، وأن تحبّني ولا تكلّمني وأحبّك ولا أقبّلك ،

وتمسّني ولا تختصّ بلذّة ، وألبسك فلا امتاز عنك باحساس ... لو سالتُك لقلتَ : أنت مجنونة . ويكون حياؤك أقبح من كلّ فُحش . وتكون كجميع الناس يستحيُون أن يتعرّوا ويشتملون باكثف الثياب . وما رأيتُ الاّ طهارةَ الحيوان والوحوش والارض والنور والقطّة تقع للقطّ والناقة للفحل والارضِ للنار ، ولا تستحِي ولا تختفي ولا تتنكّر ...

(تُمسك لحظة)

وإني بينما كنت أنت منذ ستة أشهر الى سدّك وفعلك وجهدك خلقتك ، خرجتُ عاريةً إلى الحيوان والوحوش والارض والنار والنور . طهارةِ الكون . طهارةِ الحياة . عراء الكون . عراء الحياة . طهارةُ الروح . عراء الروح . الصدق ...

وما احتاج إلى سدٍّ إلاّ مَن خشي التجرّد ، وجبن عن الصدق والعراء . وما استحيى مِن كشف النفس الا من كانت نفسه في قبح العورة . بل انظُرِ الصفاة

تلقاك بكامل جسدها ورأسها وأنفها وثدييها وبكارتها ولا تستحي . وانظرْ سدّك كالغطاء يستر عورة نفسك ويُخفي علّتها وقبح منظرها ويوهمك القدرة ويستر العجْز . . .

غيلان

لا صدق يا ميمونة ولا عراء . ولا غطاء . السدّ سدّ .

ميمونة

وغيلان غيلان !..

(في عزم)

. . . إجلسْ وهات الحساب .

ألم تُسرَق جميعُ آلاتك في الشهر الاول ؟

غيلان

بلى . ولكنّي جعلت من الايدي والعزائم والسواعد والقلوب صواقِرَ وفؤوساً ومعاويل . وغلبتُ الصخرَ بالصخر ، واستغنيت عن الحديد والصواقر والفؤوس والمعاويل .

ميمونة

ثم ألم تذهب الحُمَّيات بنصف رجالك في الشهر الثاني؟

غيلان

بلى. ولكنّي قلت للنصف الباقين: خذوا بثأر أصحابكم فاغلبوا ما غلبهم، وأقيموا سدًّا أرادوه فماتوا فيه. فعمل الرجل منهم عمل ثلاثة. فكأنما ورثوا عزم أصحابهم وسرَتْ اليهم قواهم.

ميمونة

ثم ألم ينفجر عليك ماءٌ دفَقٌ في الشهر الثالث جرف أعلى سدّك وحطّم شهرين كاملين من عملك وجهدك؟

غيلان

بلى. ولكنّا تألّبنا على المياه. فرفعنا ما حطّت وعمّرنا ما أخلَت، ورددنا السيل ونفينا الجرف.

ميمونة

ثم الم تَهلك في الشهر الرابع قافلةُ الحديد أثناء طريقها

اليكم حِمْلًا وحاملًا ؟

غيلان

بلى . ولكنّا قطعنا جِذالاً عظاماً صلبة من الغاب ، فأقمناها مُقام الحديد .

ميمونة

ثم ألم تُصبك منذ شهر حمّى هدّتك وأقْصتك عن سدّك ، وتركْت رجالك كالغُنْمي أو كالأيتام ؟

غيلان

بلى . ولكنّي أقمت كبير البنّائين مُقامي ، فقام بالامر أحسن قيام .

ميمونة

وكل هذا ، كلّ هذه القَوَمات بعد النّكبات، لانّك كنت تخشى ان تخسر السدّ وتيأس منه ، فتنكشف العورة ويتبيّن العجز ...

غيلان

لا يا ميمونة . لا . إنما كان كل ذلك بضرورة الفعل

وقوّة الخلق .

ميمونة

ولكنّا دخلنا منذ منذ أيام في الشهر السادس ياغيلان .
وإني لأجد في النفس توقّعا وخوفاً . . .

غيلان

(متضاحكا)

ومِمَّ ؟

ميمونة

لا أدري . . . لا تعُدْ الى السدّ يا غيلان . إني اخشى عليك منه . لا تدعْنِي إليه .

غيلان

مِمَّ الخوف ؟

ميمونة

لو مُتَّ يا غيلان .

غيلان

انا لا أخون ما أعِدهُ بنفسي من الاعمال . والموت

خيانة .

ميمونة

ولو مُتَّ مع ذلك . الموت لا يبالي بالايفاء بالوعد .

غيلان

سؤال ولا وجه للسؤال . نحن لا نموت ألاَّ في آخر القصة ...

ميمونة

والسدّ عندك قصة ؟

غيلان

وما ترَينه يكون ؟ كل شيء قصة . بل انظري يا ميمونة . لو مُتنا الآن لقطعنا حبل القصة وأغضبْنا الاقدار. فهي تمدّ في الحياة لاجل القصة وتُميت لاجل القصة : كمجنون ليلى واهله وليلى واهل ليلى ، عاشوا وارتحلوا ونزلوا وأحبّوا وكرهوا وقطعوا بين المجنون وليلى وفعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا ، ليكونوا قصة من قصص الادب . او كالانبياء يوحى إليهم في

الاربعين لا قبل ، ويموتون في الستين لا قبل ، ويولدون في مراح غنم لاغيره، ويُصلبون او يشبّهون الى الناس ولا يحرقون، لتُصنَع فيهم قصص الانبياء... والآلهة والاقدار كالعجائز والشيوخ مُولَعون بالقصص . فنحن لا بدّ ان نبقى أحياء الى آخر القصة . الحياة والموت لا قدر فيهما يا ميمونة ولا قضاء . انما هما من أمر القصة ...

ميمونة

(هازئة)

اذا مات الرضيع وإن كان من أخصب الاطفال صحّةً ، فاعلم أنه لا فائدة فيه للقصة . واذا عاش الوليد حتى شاخ وعُمِّر وان وُلِدتْ معه مائة آفة ، فهو لا بدّ منه للقصة !

غيلان

وما يُدريك ؟ فقد يُراد من الرضيع الفاني بأبويه قصة . قصة الحرمان ، من الزمان ، من المدى ...

واهزلي أو جِدّي فهو ما قلتُ : الحياة وظيفة الانسان في القصة، والعمر مداها .

ولو شئنا ان نموت الآن ولو قتلنا أنفسنا لما مُتنا .

ميمونة

اتعلم يا غيلان ان سدّك لا يستقيم لك إلاّ ...

يقف غيلان فجأة ويصرف بصره إلى جهة السدّ بآخر الوادي .

غيلان

(وهو يمعن النظر الى جهة السدّ)

إلاّ ... ؟

ميمونة

هل جعلتَ فيه حجراً أسود ؟

غيلان

(كالناشىء فيه اضطراب او كالذي بدأ يضيق بالكلام)

ولِمَ أجعل فيه حجراً أسود ؟

ميمونة

إذن لا يستقيم . ألم تَر إلى الكعبة ؟

غيلان

(كمن حل به اليقين بمصيبة)

ما هذا يا ميمونة ! ... ما أرى ؟

ويندفع ، فتقوم ميمونة فتنظر فترى دخانا متصاعداً من جهة الجذال المسْنَد إليها بناء السدّ ، ويلوح لها الرجال على السدّ يهدمونه او يرمون من اعلاه حجارة على النار .

ميمونة

هذا ما كنت أخشى .

وتندفع إثر غيلان ، فينحدران فى العقبة سريعا ويغيبان عن البصر نحو الوادي .

المنظر السادس

في مساء عين ذلك اليوم ... ليلة مقمرة وجوٌّ كمُشَاع اللّبس كأن ميمونة وغيلان والخيمة والجبل فيه في غمامة بيضاء .
ميمونة مستلقية على سرير أمام الخيمة ووجهها إلى السماء تتفالق فيها النجوم . وغيلان واقف كالصنم الابي ... والبغل رابض. يعوي الذئب ثلاثا ويقفز البغل .

ميمونة

وعُواء الذئب أيضا يا غيلان.

غيلان

وأيّ شأنٍ لنا فيه؟

ميمونة

الذئب صوتك يا غيلان .

غيلان

(يتحرك فيذرع الفناء جيئةً وذهوباً)

(كمن قامت فيه حيرة)

الذئب صوت هذه الارض . فهي عليلة ، تشكو الوجع على ألسنة حيواناتها وانبيائها، وفرقعة صخورها في الليل ، وحفيف طيرها في الظلام.

ميمونة

الحيوانات والانبياء والصخور كلها تنذر ياغيلان . والذئب يألم .

غيلان

(في شيء من الغيض)

الا يخرس هذا الذئب ؟ الا يخرس كل شيء ؟ أليس في استطاعة الكون ان يصمت ويسكن ساعة واحدةً من الابد ؟

ميمونة

هذا غضب المغلوب يا غيلان . اجلس او استلق مثلي.

لا يقول غيلان شيئاً ويذهب فيستلقي على سريره بقرب ميمونة . ويمسكان ساعة ، فلا يُسمَع الا انفاس الليل . ثم تتكلم ميمونة .

ميمونة

(بهدوء أوّلا)

ها قد طُرِدت من الخيال والأُمنية ، وزُحزحتَ وزال القرار . فانت في نفسك مقصور عليها وقد اشتملتَ بالعَجز والغيض ... خرج عنك رجالك وخذلوك ، وسدّك لا يزال يجهد أن يتم وأنت لا تزال تجهد أن تقدر . فاذا أنت تهوي وتتقد وتصطلي نارَك . وتريد ان تطفىء غيضك بالكفر والطغيان واللعنة . غالبتَ صاهبَّاء تظنّ أنك الغالب . فجمعتْ عليك كلمة رجالك وأوحت اليهم الشقاق والنفاق ، وتركتك وحيداً مُؤْلِماً حقيراً ، وتركتْ لك هذا السدَّ مُنتصِفاً صورةً منك اليك ...

لقد هـمُّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك ، وأن لا

ينصرفوا الا أن يهدموا سدك تهديماً . ولكنَّ صاهبَّاء شاءت بك لطفاً او غايةَ قسوة ، فصدَّتهم وأبطلتْ أيديهم عنك . حتى لقد رأيت أيديهم يرفعونها بالضرب او الهدم ولا تضرب ولا تهدم . حركات سكوناً كصوتك ينقلب سكوتا . فكأن قوة السواعد والايدي تختنق في العضلات اختناق صوتك ينشأ في صدرك ويموت في حلقك . ولم يصبك الا نارٌ في اليد أحرقتها . وسَلمتَ وسَلِمَ سُدُّك . ثم جاءتك الهواتف فقالت: « كفى عناداً واستسلم. فما قُدِّر لك غير الشروع . كبعض الافعال من أخوات كاد . فلا تطلب بلوغا الى غاية ، ولا تطمح الى قِمّة ... »

فلنزهدْ ولنستسلمْ يا غيلان . دعْ عنا السماوات والاعالي ولنكْتَفِ بالارض . وانَّك ان أتممتَ الفعل وأنهيتَه فقد قتلته . فليبق هذا السدّ غير تام . ليبق له خلوده يا غيلان . دعْه بلا نهاية ... ولنكنْ

لانفسنا يا غيلان لا عليها لغيرها. لنكنِ انتظاراً للحاضر لذيذاً، ولنكنِ القريب البعيد، اللذّة الحاضرة والسعادة الحاصلة نستبعدها كالتمنّي وهي واقعة. لنكن مقدمة لنفسينا وتمهيداً. ننتظر النعمة وهي حاضرة. ونتوقع المتعة وهي شاهدة. وتنتظرني وأنا بين يديك، وانتظرك وأنت فيّ. لنجعل الطلب في قلبينا: أطلبك وأنا حاملتك وتطلبني وانت حاملي. لننسَ المكِنَ يا غيلان. لنكنِ الفجر ...

غيلان

نعم ... ذاك عذر جميع مَن يجبنون فيضعفون عن الجهاد. يقولون: لا حول ولا قوة الا بالحقيقة الواقعة، والحق الوافع لا يُقاوَم، والممكن لا يستقيم. وما يقولون الا باطلا وهماً. لان الحقيقة الواقعة وجميع العقبات لا تحول دون الممكن يا ميمونة.

لأ تمَمَنَّ السدّ.

ميمونة

إمكاناتك يا غيلان ، أعلمُ أنها بديعات نفسك وأنها العدم يتصوّر لك وهو يريد أن يكون ... وإنها لمن باطن آلامي . وانها للعظمةُ والرزانة، وحقيقة الحمل. ولا نكون بدونها الاخلاء . لكنّ وضع الامكانات وضع الحمل. وليس أحقر من حامل بعد وضع. فلنبق على غنانا وعظمتنا ورزانتنا ، وليبق معنا ما يَملأ النفوس . ليبق السدّ في نفسك إمكاناً حَملا.

غيلان

إن من بين الساعات لساعةً يا ميمونة لا ينقص فيها الخلقُ والوضع منك شيئا ، ولا يذهب بشيء من حملك . ساعة يتصور فيها الممكن بصورة الكائن الواقع دون ان يتقيّد بقيد ولا يُحدَّ بحدّ . وينقلب فيها الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد أشدّ من كل حديد وقوة . هي ساعة أقصى الصعوبة. وإني أراني فعلت ما فعلت ، ولقيت ما لقيت من المصاعب في

فعلي ، ولَمَّا أصِلْ الى هذه الساعة .

وانها لساعة أعظم من صاهباء وأعلى . أعظم من السماء وأعلى ، وأعظم من جميع الآلهة واعلى ، هي ساعة كمال الخلق .

طريقنا لا تزال يا ميمونة طويلة ...

ميمونة

ألا تخشى علينا الغِشية والاعياء والضعف ؟

غيلان

هل تذكرين أسطورة أسال ونائلة ؟

ميمونة

نعم ... أسطورة الرحيل . سمعتها منك في ليلةٍ كنَّا فيها إلى الرحيل .

غيلان

... جاءها يوما ـ وكانا قد بلغا أقصى جمالهما وأبعد حسنها ـ جاءها فقال : إني راحلٌ عنك . فقالت : وما طريقي بعدك ؟ فقال : العقبة الوعرة ، قالت : وما

الراحل بك عني ؟ قال : كره البيوت الثابتة، لا تنتقل ولا تتحرّك . وكانت عيناه وهو يقول إلى أبعد من الافق . ثم قال: ولئن اكتفيتُ بك فاكتفتني إنني إذن لجبان . وقد حذرتك ان تكونى ظلّي وبرودتي ونهاية طريقي . فان شئتِ أن أبقى فلتفنني .

وادركت نائلة أنه عاوده الرحيل وكره الشجرة على الطريق باردة الظل تدعوه أن يقف ويستريح. وكان يقول : لا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا نهاية. وكان يخشى ان تنقلب الحركة والرحيل والشوق الى صخرة وقوف . فلما ادركتْ أنه عاوده الشوق قالت : افعل ما ترى.

فأخذ عصاه وذهبت به الطريق ... فهو عليها الى الممات.

ميمونة

أو لعل نائلة ما خسرتْ أسالا الا لانها تبرَّجتْ له وتصدّت . وليس من فحلٍ الاّ وهو شديد الزهد في

الضابعة الملقية نفسها . ولا مِن إله الا وهو شديد الزهد في القُربان الذلول الخاضع للذبح . إن كان ذلك منها فقد أخطأت نائلة .

غيلان

إنما خطأ نائلة وخطأ صاهبّاء أنّهما ثابتتان لا تنتقلان ولا ترتحلان .

ميمونة

« لعنةُ الكون على مَن لا يني عنه الرحيلُ »

غيلان

أهو من كلام الهواتف أيضا ؟

ميمونة

نعم يا غيلان . ولكنك مُتصامِم أصمّ . لا تسمع الا الابعاد لا تتناهى وخلاء عوالم الغيب ، ويُفزعك الملأ .

ليمسنّك يا غيلان الجنون . أتذكر هامانَ تركناه في اول طريقنا إلى السدّ ؟

لقد كنتَ تدعوه ان يتردّد علينا . فاذا جاء سألتَه أن ينشدكَ شعره ، وقلتَ انه من ابدع ما يُسمع. وما كان الا هذيان مجنون. وما كان هامان الا ظلاما وروْعاً. وكان على بعض الوجوه نقيضك ، ولم تتعرَّفْ من أمره غير ذلك . اما أنا فقد حاولت أن اتعرَّف . . . فهل تعلم يا غيلان ما كان سبب جنونه ؟

وُلِد هامان ...

(يتضجّر غيلان)

لا تتضجَّرْ، فلستُ قاصّة عليك كامل حياته ـ وُلِد أحمرَ ريَّانَ شهيّ الوجه والفم والعين . ثم نشأ فكان فيه صمت وفيه الى فساد الاخلاق ميل . وترعرع منغلقاً لا يبوح فمه بشيء . مُخنَّثاً لا يردّه عن لذّته شيء . وكان مفعَم النفس ظلاما كالضالين في طغيانهم يعمهون . سنينَ طويلة . فريداً وحيداً لا أب ولا أخت . ترمقه عين أمِّ عجوز وحيدة لم يعرف غيرها امرأة قط .

ثم شبّ فانكشفت نفسه لعينه فاذا هو الثمرة الدائدة الفاسدة ، واذا شيطانه الباطن ودودته المرأة والشهوة . ولم يكن لبلاده غير السماء والزرقة . فقال : أريد أن أُقبّل السماء والزرقة . فقالوا : إنه مجنون او شاعر . ثم نشأ العقل ففقّح وتشقّق عنه الجسم والشهوة كتقريح الارض عن البقل . ومزّق هامان جلده بظفره، وابتدع النسيان ليصرف عنه الشهوة والحلم والجسم . وكانت تأتي عليه ليالي الصيف كدَعَوات شدادٍ لا تُرَدّ ، وتتواتر عليه الاطياف والمحسوسات ، وتتّقد شفتاه ، فيقوم فيعدو فيقع في ماء البحر كالفزِع الملدوغ . وكان يجلس الى البحر عند الآصال . والشمسُ الى الفتور ، فتبرز له الفيات رياحين ونوراً تماثيلَ يسبَحْن في الشمس . فيلتهب ولا يجد الى صرف الكلاب المحيطة بهنّ سبيلا ، ويرسل زَفَرات العفيف يُرغَم على العفّة . وكان له في النساء، وخلاء الجزيرة منهنّ وصبره عنهنّ، جهادٌ

حديد . وسكنته الحيرة واعتلّ الجسم ، وجحد هامان ربّه . وأوهمه العقل أنه يخلّصه من شهوته وجسمه الصائم ، فهمس فيه : لأُقيمنّك صرحاً عظيما . وسعى هامان ان يعلو ويمتن عقلاً ، ويعظم ويشتدّ روحاً . وتوتّر عقله حتى كاد ينقطع الوتر وتطير السيَة . ووجد هامان اتساعَ الابعاد لا تُحدّ . وكان التدميرُ والهدم . فهدم شديداً . وهدم مغتاظاً . وهدم العقل والحس . وخلق نفسه خلقا جديداً . أو ظن أنه . . .

ولكنه لم يلبث ان علم ان الحس بقي تحت العقل كخامد النار ، وأنه كان للعقل حدًّا وقيداً ، وأن العقل كان للحس كالكير للنار . . .

ثم تهيأ له الامر فارتحل عن الجزيرة وعبر البحار ودخل مدينة سيرام . وولج نهرَ أهلها من رجال ونساء . وتهيأ له منهنّ حسان لا تُحصى . ونسي العقل . وبلغ أقصى الشهوة وما تورث من دُوار وغشية ؛ وظنّه الارتواء والشبَع . وما كان

ارتواءً ولا شبعًا . فقد كانت كل ذروة تهوي به إلى أسفل الجوع . وكل متعة الى أبعد الشهوة . وكان يسكن بعد كل شبعة ساعة . ثم اذا شوكة او إبرة تخز سكونه . فيعود الى الحس والنساء واللذة ...

ثم احتاج أن يعود الى الجزيرة، فعاد، وامتلكته كذي قبل. ونظر فاذا الجسم قد غلب العقل، وتثاقل عليه كالوطب وأماته. واذا الصوم بالجزيرة يعود الى الجسم والشهوة . وعلم أنه قصر عن نفسه وقصرت عنه نفسه . فدخله من ذلك اليوم الجنون ...

وهذا الذى كنت يا غيلان تسميه الشاعر الاشعر، وتدّعي له مدى وتعيره فضلا . وانما كنت تحبّه لانه كان نقيضك . لانه كان نفيَ ما كنتَ تريد إثباته في نفسك: الروح والعقل والايمان بالانسان والقوة . لانه كان غليب الجسم والوهم والشهوة، فانت تريد الاخذ بثأره. لانك تظن أنك سلمت ممّا أماته من المقتضيات الجبّارة الشديدة .

لانك تحسَب أنـك بالغُ الفعلِ والتكوين والخلق ، وهو لم يبلغ منه شيئـا . لانه أماتته الحقيقة الواقعة وخنق الطينُ امكاناته . فسقط وتساقط في باطن نفسه أنقاضا . كانقاض بيت متهدّم وقعت في جوفه . لانك تظن أنك فالٌّ للعقـال ، قاتلٌ للحقيقة الواقعة ، قادرٌ على الممكن ...

(تسكت ميمونة لحظة . ثم ...)

انك يا غيلان للعُتِيّ والكبرُ . وانك للخلاء والضعف والجبنُ . انك الثور يصعَق خُواراً الى يوم يُخصى . فاذا خُصي ذلّ وأمسك . ولا بدّ يا غيـلان ان تخصى ...

غيلان

فيَم كل هذا الغيض وحرارة اللهجة؟ فما استحق الثور هذا الشتم ولا هذا الغضب. الثور من خيرة الانعام .

ميمونة

لا تتصنّعْ يا غيلان الطمأنينة . لا تتصنّع رضى النفس.

لا تُمـارِ . انـك الضعف والخـلاء والجبن .

يبرز من ظلمة الليل الناشىء خيال
لطيف كاختـلاج جنـاح الحمامة .
ويقوم على رأس غيـلان . فتبيّن
منـه العين قامةً كالصَّعْدة ، وشعَرا
كرغوة القمر ، وجمـالا ونعـومة
ورواء ... تلك مَيَارَى.

غيلان

وأنتِ يا ميمونة ؟ ألستِ الشك والحيرة ؟ والصيحةَ في الصيحة ؟

ميمونة

او عينَك التي لا تُمارَى . عينك التي ترى . لا تَعشَى ولا تعمى .

غَيْلان

ان أنت عيني فعيني من أغرب العيون . عيني لها أذنان ورأس ورجلان وصدر وثديان . وعيني تأكل وتشرب ، وتغضب وتفرح ...

تأكل وتشرب وتغضب وتفرح . وترى أيضا يا غيلان . وقد رأت صباح اليوم ...

(يسكت غيلان ويسكن)

نعم لقد رأيتُ صباح اليوم العمَّال والبنَّائين وقد جُنُّوا في هذا الوادي وادي الجنون . وسمعتُهم يقولون : لن نرفع بعد الساعة صخراً . ولن نبنيَ ولن نقيم سدًّا . ولا نحتمل اللعنة والنقمة ... فلما قالوا وصاحوا صياح السباع تضري، وهزَّتْهم ريحٌ هوجاء تدوي ، وصاحبتْهم ضوضاءُ هولٌ الى الافق ، وتصاعد الغُبار فوق الطريق فقَصَّ فرارهم ، وخلونا أنا وانت وخلا الوادي ، ـ نظرتُ فرأيتُ كل شيء حولك يُسلم ويُذعن : رأيت الصخور طريحةً تقول : لا جهاد . أَسْلِمْ . والسدَّ أبتَرَ يقول : لا جهد ولا جهاد . أذعِنْ . والدنيا كلها بسكوتِها وانغلاقِها على صياح العُمَّال والبنَّائين وهدوّها بعد

هزَّة الثورة تقول : لا جهد ولا جهاد ... لا جهد ولا جهاد ... ورأيتك قائمـا وحدك ممسكاً يدك الحريقة . وقد عاندتَ واستكبرتَ وأبيت . وانكرتَ الهزيمة . ونفيت الانكسار . وصرفت خفقة القلب . وامسكت دمعة العين . ولم يُسمَعْ لك توجُّع ، ولا شكوىً تبوح بحياة ورقة او باقي حيـاة ورقة . ومكثتَ شاحب اللـون ، متقلّب الصورة ، صلبَ الجسم . كالتمثال بقع فينكسر فلا يألم ولا يفرح ...

ورأيتك على ذلك يا غيلان ، فرأيتُ غُولاً كما عرفتُ في صباي من الاغوال تُصنَع من مِلْحَفة ووسادة : وجهٌ من أشوه ما يُرى وهيأة من أهول ما يُفزع ... وما تحتَ الوجه والهيأة الا أخي الصغير يُلاعِبني ويريد تخويفي .

كذا الزائفات كلّها يـا غيلان . ولقد رأيتُك زائفا كغول الصبيان ، او كالطفل الخَفِر الباهت يسلك طريق الذئب ، ثم يقف في بعض طريقه مبهوتا ، ينظر

ما وراءه من براءة فاتتْ ، وما أمامه من شجرةٍ حرام تُغويه وعقاب أليم يخافه. فينهدّ عزمه ويجمد ، فيقف دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلّ الطريق وشُلّتْ يداه وضاع رشده ...

تتقدّم مَيَارى ولا يراها غيلان ولا ميمونة ، خيالاً كالحُلم اللذيذ وعُزْيةً تقع للنفس، كرفيف الريح ، ورديّةً حمراء ، شذاها من زرقة السماء ، وتُقبل على غيلان بجناحيها فكأنها تهمّ ان تذوب عليه او تتلاشى فيه ، كالغمامة تشمله . ثم تنحني فتنفض عليه مثل لَقاح الازهار كرحمة السماء ترشّ رذاذاً ...

وغيلان على أُلهه لا يبوح ويسمع. وميمونة تؤنّب وتقرع...

ميمونة

(بعد سَكتة)

ولقد قلت لك مرارا : احذرْ يا غيلان وانتصح بانذار الهواتف . وقصصت عليك ما رأيت من رؤيا .

فلم تسمعْ ولم تفهم . وذهبت الى سدّك . وتركتني وحدي . .

وانفردت فترددتُ على القوم . ولم يكن عندي من امتع المتعة . بل كان ما ينشأ في نفوس القوم من التجنّب والاعراض عند مروري ، وصمتُهم حولي ، وامساكهُم عنّي ، من أمرّ ما تحتمل امرأة مثلي . ولكنّي مع ذلك غشيتُهم وغشيت بيوتَهم . وتأمّلتُ في الناس والحيوان والاحوال . وأمعنت إلى الألوان والظلمات والانوار . وتعرّفْت العطور ، وحضرت الصلوات . وسمعت الادعية . وتنشقت أرواحهم وعشتُ عيشتُهم أياما . ثم جئتك فقلت : يا غيلان . ها أنا ذي بعد الاصوات الهواتف وبعد الذي رأيت من رؤيا . ها صوتي ، وها حرُّ روحي في روحك ، وكلُّ روحك مفعمةٌ روحي . اليك نفسي ونصحي : ما قُدّر لهؤلاء الناس وهذه الارض غير الظمأ والامحال واليبس والقحط . وإنهم أدركوا من أرضهم

روحها ومصيرها فقالوا : إنها اقتضاءٌ محضٌ . تقتضى الانسانَ أن يفنى، كالصخرة تتميّز وتنشقّ لتنبجس العينُ وتُخرج الحياة والماء . وانه باغيلان لمن أوهام الصبيان أن تحسَب ان الظمأ يقتضي السقي . والصبيّ الغِرّ لا يخطر له ان الظمأ قد لا يقتضي غير الظمأ ولا يدعو سوى القحط . فاحذر يا غيلان أن ينتقم الظمأ وأن يَنتقم القحطُ ... ثم قلت لك أيضا : هل تفكّرت في غريب شأن هؤلاء القوم يعيشول في هذا الجبل وهذا الوادي منذ آلاف السنين ؟ وهل طلبت سرَّ أمرهم فيها؟ إنهم لم يطعَموا غير الظمأ المطلق، ولا وقع لافواههم فاكهةٌ او ثمرة او لحم او خبز لم يذهب الحرّ والشمس بلينه ورطوبتهومائه، ولا أكلوا غير عصارة الرمال قط، ولا شربوا ماءً الا ما يمتصّون على الحصى النديّ في الفجر . وليس الذي تقتضيه هذه الارض وتدعو به غير عظام الجثث اليابسة البيضاء وغير الرخام والمَرْو والصفا . منه مالَها من بأسٍ

وشدّة ، وعنه مالها من عظمة وقوّة ...
قلتُ ذلك وكرّرتُه حتى مللته . فلما مللتَ قلتَ :
ان كانت هـذه الارض تقتضي الصُّلب فسنُعطيهـا
سُدًّا صُلُدًّا ...

(تسكت ميمونة كالمُتثقّل . ساعةً ثم تقول)

وليس في شأن الزائفين العـاجزين المُتقادِرين أمرٌ
من العِناد وأدهى .
وانك يا غيلان تُعانِد . حتى بعد الذي جرى اليوم
تُعاند .
والعُتيُّ هو القاتل .

غيلان

(بصوت خافت وانـاة)

لو اجتمعت الأكوان لِترحيَ وتقتُل لما اصابتْ غيرَ
أسراب الطيور وجماعات الناس وقُطعـان الغنم ...
وأما مَنْ كان واحدًا أوحد فاذا صعقتْه الصاعقة فهو
الذي أهلك الصاعقة .

يسكتان . ويبقى غيلان في تلاطم
من نفسه كاضطراب العواصف .
ساعةً تم تستأنف ميمونة وكأنها
تحدّث نفسها ، لا غيلانَ ولا غيرَه.
فتقول :

ميمونة

وليست الشجاعةُ ولا الجرأة ولا القدرةُ ولا البأس ان تهدّم نفسَك لتبنيَ السدود وتفعل وتخلق . وما أحقرَ الفعلَ والخلق عذراً عن تهديم نفسك !
الشجاعة أن تصبر على الشك ويقوى له قلبك . أن يسَع صدرُك التناقضَ الملآن الخصب . كالنور يهدم الاشكال بما يقتضي الجمالُ ويبني ، بلا كيان ولا جوهر ، معنىً محضاً وروحاً . الشجاعة أن ترضى بنفسك وقصورك ونقصانك وعجزك . أن ترى شأنك ذاك ولا تندكّ ولا تحزن . أن تجاهد دعوة الامكانات وتشويشها لو جدان الوجود وإغراءها بالفعل والخلق. أن لا تطمح إلى الجبال وترضى بالاغوار والوهاد ،

وتأكل من الارض الغبراء فتكون لك لذّة ولا تكون لك سواها متعة ...

إني يا غيلان بلغت جهدي . وسئمتُ هذه الاعالي والسماوات، والقِمَم والذروات لا تُدرِكُ . سئمتُ الجهود والمساعي تخفِق ... وقد أخفقتَ يا غيلان حتى في حبّي وحبّك ...

يا غيلان لمغت جهدي . وملتُ الاعالي والسماوات لا تُبلَغ والجهودَ لا تُفلح ...

كَفَاني التصاعُد والتعالي كفاني ! فليهبَّ نَفَسٌ من ريح الوهاد الوضيع الثقيل ! ولينفجر الدم من عيني او وجهي وليملأ فمي من جراحي ! ليعُدْ لي الشعور بنفسي وحياتي وجسمي ! لا أنزلْ ... ليجتذِبِ الأَساسُ إليه القمّة ! لتسقطِ الأعالي على الاسافل ! تعجيلًا بالدّمار . تعجيلًا بالقضاء !

تمسك ميمونة عن الكلام وتبكي
الى القمر والنجوم وحدها . فتصل

دموعها صامتة حارة أليمة كالعين في صدرها . وتذهب نفسها في البكاء فينشأ في باطنها عين جارية كالجواري ينقلبن عيونا وسواقيَ في اساطير اليونان ...

وتتهيأ ميارى للكلام . فيصرف غيلان وجهه اليها وصدره . ويتجمّع عليهما نور القمر فكأنه لا يضيء سوى غيلان وميارى ، وتتطمس ميمونة في الظلام وتبقى على دموعها حديث وحدتها ...

وتتكلم ميارى ...

ميارى

وقفتَ خلفي إليَّ وأنا إليك . وجعلتَ رأسَك على كتفي وشعري . وتناظر وجهانا في مرآة الافق لا يتناهى . وطوّقتُ رأسك بذراعَيَّ ، فاذا انا حاملةٌ اناءً خمراً وصنما معبوداً وعالما حيًّا . واذانحن أحسنُ الحسن . واذا حسننا نفي لكل شيءٍ سوانا ، وانكار ودفع . وهان عندنا الأمل والعزم والخيال والوهم ،

وهان في أعيننا الكونُ . وجاءنا الاحتقار والاهمال والزهدُ ، وانتفى الحرصُ . وحلَّ بنا الكِبرُ والطهارة المحضُ . واندفعنا نثبُ وَثَباتِ الاغوال العواصف. وطلقْنا وانكسرت عنّا الروابط . وقامتْ لنا بدائع الدنيا ...

حتى صار عندي للماء عشق ومن الظمأ والقحط ضجَر وكرْهٌ . وكرهتُ كما كرهتَ إسلامهم وصاهبَّاء . وجئتُك دفقاً يُؤتَى وعينا تُورَد وجنّةَ خُلدي . على أنْ كنتُ قبلُ لا اهواك ولا احبّك. وكنت رأيتك في صخورك ومعاويلك وحديدك ورجالك وسدّك عليك العرق كالسواقي ، فقلت : انه من جنس مَنْ سبقه من المحاولين العُجّز . رخيٌّ ضُعفٌ . لا يرى غير الماء للقحط دواء . وينتصف الطريق ثم يهزل ويضعف . ويَقتُل ولا يُميت . ويوقِد ولا يُحرق . ويحبّ ولا يعبد . ويقول ما يقوله قومه : لا سبيل الى الخلق المطلق . ثم نظرتك

تُرغم القاعدة على الفوضى، والجهادَ على ما لا يتناهى ولا يُحصَى. ورأيتك في الجهاد كالمقاتل وحدَه. في دغَل من السيوف والاعداء. او كوالجٍ عِيصٍ فيه اشتباكٌ واهدابٌ كثيفة. يتقدّم ولا يُحجم. ويقطع الاهداب ويعضُد. سائرَ السيل لا تتوقّف... فجئتُك واحببتك.

وكنت انتظرك من اقصى مبدأ أيّامي وعُمري. حتى كدتُ أنفد. وحتى كدت أقع للشمس أهديها نفسي وجسمي. وقلتُ: ليس غيرها جديرا بدمي ولحمي، وليس غيرها يستحق جسدي الرخام المغري، ولذّتي وألواني وظَلمي. ولا غيرها أهلا لعبادةٍ كاهداء بكارتي وغضاضتي وجدّة جسمي. لان الشمس بنورها هي الاباءُ والطهارة والنقي والثورة. ولانها تسخر من الظلام والعقل، وتهزأ بالجوهر والعارض. ويحضرك نورها وهو الخلاء والغيبة. ولا يتجسّم لك وهو المَلأ والحضْرة. فهو للعدم احتقارٌ غاية. وهو

كمال الخيال والامنية والحُلْم ...

ثم جئتَ ، فنظرتُك . ونظرتُ فاذا نور الشمس خيوط او بيت عنكبوت يلمع لعيني . فنفضتُه فاسقطتُه كخِرشَّاء الحيّة عنّي، وعرفتُ وجهَ فرحي بوجهك ...

وها قد جاءت ساعة السير العظيم والخلق المتين والفعلِ . فليدفعْنا إلى الذروَات الجهد والعزمُ ويرفعْنا عن الناسِ . وهات يدَك غيلان نثبْ فوق ذرى الارض الرواسي ، نأباها ونعلوها ونطرِ بالسدّ كالطير الغَرَاسِي .

وتأخذه من يده ، فيقوم معها في لين وتُؤدة وقد اكتسى وجهاهما جمالا بديعاً ، وارتويا ماءً نُظوراً ، وازدادا عظمةً في الروح وفي القامة طولا . وتستأنف ميارى وهي ذاهبة به من يده تحمله كالموجة ، فتقول :

ميارى

سنخلق الرياح العواصف.

ونخلق الرعود الزلازل .

سننشىء السدّ .

وننشىء الحبّ .

غيلان

(كالمُلِمّ به طائف)

نعم . سننشىء ونخلق. سنعلّم هذه الارض الشجاعة والعقل والبأس والشدة . ونهزّ أهلَها هزًّا . حتى يتوبوا من الهزال والجبن وكره المياه وحب القحط ويعرضوا عنها . وسنرسل فيهم كلامنا وروحينا سيلا جُحَافاً حتى يعلموا قوّة الروح ويذعنوا إليها . ونستخدم نبيَّهم ورجالهم ونساءهم وحتى صاهبًا هم وما لها من قدرة.ونسوطهم كالبغال حتى تدمَى أيدي آلهة الهزال والقحط في إقامة السدّ وخدمةِ ما اراد الانسان من خلقِ.وننفخ في كل شيء حياة ،ولتقومَنّ

الصخور بنفسها فتطير فتقع مواقعَها من السدّ طوع عزمينا. لننفخَنْ عاصفةً هولاً. لنُنْشئَنَ ولنخلقَنْ خلقا. لان القوة والوثبة فينا.

يذهب غيلان وميارى في غبار القمر المذهَب، وحرير الليل اللذيذ الرطوبة.

ميمونة

(وهي تشيعهما بالنظر وتهزأ مرًّا)

سيخلقان الرياح العواصف.. ويخلقان الرعود الزلازل..

سينشئان السدّ.. وينشئان الحبّ...

فعلى اهل الخيال اللعنة!

وتنفجر ميمونة بكاءً عويلا . . .
ساعة طويلة، ثم تهدأ فلا يُسمَع بعدها الا البغل بجانب الخيمة يخفق باذنيه ويفكر فيما قُدّر له بين البغال من شأن . . .
وتتواسع الليلة . . .

المنظر السابع

بعد المناظر السابقة بـاربعة أشهر ، في مكان آخر من الجبل . مكان ذي غبار مشتبك كثيف . نباته شائك شَرُود . تمرّ منه العقبة صاعدة في جانب الجبل وتحتها الوادي وفي قعره بعيداً السدّ . وحول السدّ قوّات لا تحصى وحركة ودويّ وعمل شديد وجهد عنيد تتراءى للناظر كالاشباح . فيُلمح فيها جميع القوم بنيهم وأصواتهم وهزالهم واحجارهم وأيديهم يكدّون ويجهدون ، وبقرب العقبة في جوف الوادي السيل منحدراً كالغيظ ، أبيض كالحليب ، وفيه صخور كسرب من الحمير تشرب ...

الساعة الزوال . وعلى العقبة غيلان وميمونة يصعدان نحو الخيمة وهما يتحادثان ...

غيلان

الليلة يا ميمونة ليلة الفوز . ليلةُ الفلاح والنصر . لقد امرتهم بآخر ما يقتضيه السدّ من الأمر . وسيضعون آخر حجر منه قبل غروب الشمس . وهو أقصى ما رسمتُ لهم من الزمان ميارى .

ميمونة

(وعلى وجهها مسحة من الشحوب والعلّة)

إن أهل هذا الوادي لمن أدهى ما رأيت من المفسدين الهدّامين . واني لأسمع الجبل يضحك لما غشّوك به من البناء الزائف .

غيلان

(مصرًا)

ميمونةُ ، يا دودتي ويا دائي ، ويا صيحةَ الحيرة في روحي ، الليلةَ الفوزُ والنجاح والنصرُ . سترين يا ميمونة الليلة ...

ميمونة

هذه يا غيلان النهاية ، وقد طويتُ طريقي . وإني

لا أرى الى بعيد بعيني. أرى ويلا دماراً وثبوراً وناراً .
فاسمعْ غيلان نحيبي : كانت ميارى عُتيَّك وستكون خسرانا .

الليلة ليلةُ الخيبة والسقوط هوِيًّا .

غيلان

ليستْ ميارى عتيّا. هي الكمال والحسن . والكمال لا يُحصى ، وأمر الحسْن لا يُعصى .

ميمونة

ميارى غرورك وغيّك، وعقلك فاقدَ الشك والرشدِ. هي خذلانك من الأسِّ .

غيلان

ذُرانا سماء لا عمادَ لها . فما شأنيَ والاسُّ يخدع أم يوفي ؟

ميمونة

تريد سدَّك على الهاوية: سماءً بلا عماد وفرعاً بلا اصلِ. وأنّه قد يقوم البناء على الخلاءِ لا الملأ . على الايمان

والوهم . كذا النفس اذا ظنّتْ أنْ طَلّقت الحدَّ او طلِقتْ منه . تأبى الاعانة والاسّ ...

وهـذا سدّك عمـاده الوهم والزورُ . واصلـه خداعك للنفس . وان مياري لغيّك وغرورك . وانها إلى ذلك لبهتانُك زورُك ...

افلا تخشى يا غيلان ان يغلبك الشوق يوما ؟

غيلان

الشوق الى من؟ الشوق الى ماذا ؟

ميمونة

لا إلـيَّ ولا غيري ... الشـوق الى الحِق . يـوم يضعف قلبك .

غيلان

اني لنافذ الى ما فوق الحق .

(يضرب على جبهته)

وإني لمُرغِم هذا القرح هنا أن يلفظ إمكانَه قيْحَه .

ميمونة

وهذا هو الغرور والغيُّ والبهتان والزورُ . فليس في نفسك قرح ولا في القرح إمكان ولا قيحٌ. وليس الا أنك توهّمتَ القرح والقيح والقدرة على الممكن .

انك يا غيلان خلاء. لا إمكانٌ ولا ملأ .

وان الويل لقريب ... قريب ...

غيلان

(مصرًا)

الليلة يا ميمونة ليلة الفوز. ليلة الفلاح والنصر.

ميمونة

(منصرفة عن الجد الى الهزل)

اذن نقيم مأدبة ... لكن اين لنا بلحم ؟

غيلان

(مستنكرًا)

لا حاجة الى مأدبة .

يصلان أمام الخيمة

ميمونة

بلى يا غيلان . لابدّ من مأدبة . فانه ما عظم عمل من اعمال البشـر إلاّ انتهى بين القـدح والمِلْعقة ...

وقد وجدتُ اللحم : نذبح البغل ...

يقفز البغل ، فتضحك ميمونة.وتتوارى وغيلان في الخيمة.

المنظر الثامن

بفناء الكهف امام الخيمة، في آخر عشيّ ذلك اليوم، والشمسُ هاوية.

ميمونة وحدها جالسة هناك تنظر الى جهة السدّ في أسفل الوادي . ونفسها ملاى انتظاراً وخوفا . كالمتوقع زوبعة وشدة تُفعِم نفسَه الحرارةُ والسحب والظلمة .

وتُسمَع اصواتٌ كأنها خارجة من الجبل ، مؤلمة واسعة عظيمة ، تغنّي أغنيّة كالعذاب تقع في النفس كالداهية، وفيها روح عظمة سماوية . يسمَع الذئب يعوي ثلاثا . نحيبا أنيناً من اعماق الكون ... ثم لا يلبث ان يصعد غيلان وميارى مُتَّقِدين كالافراح المتراكبة ...

وتنتهي الاصوات من أغنيتها الاولى ، فتتصاعد شيئا فشيئا بأغنية اخرى كالرقص

مستديراً . فتسف الاصواتُ اوّلاً
كالريح على وجه الرمال ، ثم تتعالى
وتضخم. ويشتدّ بها الدوران كنشأة
العاصفات تعصف عصفاً ...

غيلان

ترين هذه القِمّة كالابرة؟ اذا انتصبتْ عليها الشمس
كطاووس فخور أحمق ، فقد وُضعتْ آخر حجرة من
السدّ في السدّ .

ميارى

قد انتهى لنا نهار . وابتدأ نهار غيره.

ميمونة

قد انتهى النهار. وابتدأ الليل .

غيلان وميارى

يا للعَمَى ! يا لاَ نغلاق الآفاق عن الجبن والحكمة !

ميمونة

يا للَزّائفين والعُجّز! يا للهلاك والويل ! يا للخُسرانِ
والخيْبة !

ترتمي ميمونة فجأة فتقوم قيام العَزْم
وتقول في روعة

انظرا ! انظرا الجبل !..

ينظر غيلان ومیارى فيقع في نفسيها
كالصاعقة

انظرا الجلاميد من الظلمات تهتز وتتقدّم. اني لأسمع
لحن السواد .

تُسمَع الحان متلاطمة داوية حيرى
كالاعْصار والعاصفة

انظرا السماء تداعي وتهوي . كالجسر حمِّل فوق
جهده ...

انظرا الاجسام والاشكال والاصوات تنهار وتدوي...

إنه لزئيرُ الثورة والنقمة.

إنه لقيامُ العواصف والزعازع الصمَّاء .

وإنه للخسرانُ والخيبة.

ينشأ الظلام فجأة فينتشر ، وتعصف

ريح من الشيطان كانفاس الزبانية او كالدم والاثم ...

وتقلّع الخيمة وتخفق بجناحيها وتطير وتصفّق . ويقوم النبات والعِضادُ قيام النبال . ثم تتوالى زفرات طويلة ، كأنين في صدر الارض ثقيلة . وينشأ على وجه الارض دخان كاول اللهب . ثم تجري ريحٌ صِلاءُ كتنفس بركان صاعدة خافضة . ويُهمْهِم السحاب وراء الجبل ، ثم يندفع حاملاً على السماء . فتكركره الرياح وتنصبه على دائرة السماء كغطاء رصاص ...

وميمونة وغيلان وميارى واقفون ينظرون والرعب عليهم واقف . وميمونة ترتجف وترتعد . وغيلان وميارى ثابتان كالصخر . وليس الا ان تأخذ الريح شعَر ميارى الطويل فترسله في الظلمات كارسال البحر لجسم حسناء . واما غيلان فقائم ثابت لا يتحرك منه شيء ، ووجهه

أحسن ما يكون وأوسع وأجل وأبدع ... ثم تقع أولى قطرات المطر ثقيلة حادّة، فتصفق على الارض كصليل الحديد او كالشتم والصفعة. وتتمزّق السماء جرحاً من النور أحدّ من الخاطر. ويظهر الجبل في ضوء البرق متضاحكا قائم الصدر متهيّئا للتحرّك، وتتجاوب انفلاقات الرعد كدبدبة حوافر في السماء. ثم يعدو الرعد إلى جميع ارجاء الكون، وينفخ فيملؤها قلوعاً أُثقلت ريحاً، وتطلق اوطاب السماء ماءً. ويجتمع الماء والريح والبرق والجبل والرعد والظلمة والغيظ والنقمة، فاذا السماء بسحابها الاسود وحُلّ فيه فحْمٌ، واذا الارض والماء والريح عجينٌ والرعدُ والبرق ...

وتبرُز من الغيب سواعدُ وأيدٍ كقطع الجبال، فتدُكّ السماء والارض والنجوم والاجبُل ... وتقوم في الكون جمعا ثورة شعواء حمراء صُلبة، وكأن

صوتاً همهمةً يرتل: وأمرنا العواصف
والرعد والسحاب والبرق والزلازل
والهدّ فانفلقت جميعا ودوت دويًا ،
وارسلنا الصاعقة فشقت واودعتْ حياة
حية،

ميمونة

هذه العواصف والرعد علينا. أفأنتما خلقتما العواصف
أم صاهباء ؟

غيلان وميارى

خلقنا ترياق العاصفة والصاعقة . بنينا . أقمنا سدًّا ،
الزوبعة عاجزة ان تُفنيَه والصاعقة .

ميمونة

(وقد رأتْ شيئا على ضوء البرق)

انظرا. انظرا الجبل يتحامل على نفسه، ويقوم ويتحرّك
ويتقدّم . انظرا الآفا من الطيور تجرّه من شعره

أشجاره سُوداً . الا تريانه يزحف ويكركر رحاه ويطحن السدّ والوادي؟

يُسمَع دويٌّ هول

غيلان

(لميارى)

انظري السدّ يتصاعد ! انظري السدّ يعلو !

ميمونة

السدّ أشلاء . السدّ أنقاض تساقَطُ في الهاوية .

ميارى

(لغيلان)

الا ترى سراجاً في منتهى الغاب منيراً ؟ أُنظرْ اليه يدعونا ، زُجَاج صفاء وعزم وأُمْنِيّة . انظره قراراً في الزلازل على الزلازل ...

لكن ما اكثر الغاب اشجاراً ! ما أشدَّ الغصون اشتباكا! وما أشدَّ سراجنا طريقا ...

ياخذها غيلان من يدها

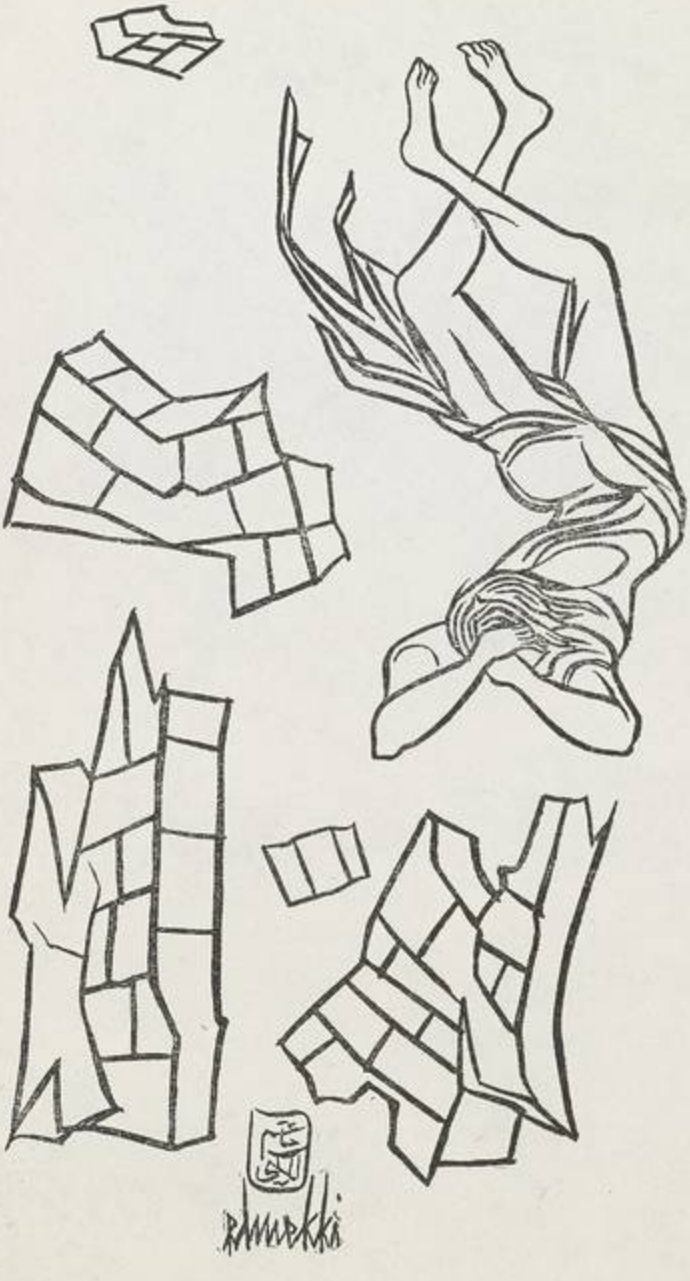

ميمونة

(كالناجية)

انظرا ... انظرا أسفل الجبل . تحت السحاب . من النافذة . انظرا الفتحة . انظرا الوهدَ لاشيء فيه . والسكونَ في الوهد والراحة .

غيلان وميارى

(يتعانقان)

لنعْلُوَنْ برأسينا ولنفتحَنْ لهما في السماء بابا .

يرتفعان وقد طارت بهما العاصفة

ميمونة

تنظر اليهما وقد غابا عنها في العاصفة

الآن بلغا المُنية واستقرَّا .

ثم تصيح صيحة كتمزيق ثوب جديد، وتنظر نحو الوهد ثم تقول:

الارض ! هذه الارض اكتشفتُها ...

وتندفع في الظلمات منحدرةً الى

الوهد ، تحسَب أنها تدركه فتلوذ
وتلجأ ، لكن الوهدَ يتناءى بعيداً ،
والارض تتحفر الى غير نهاية
بين يديها ...
ويشهق البغل ويصيح رعبا ويضرب
بالحافر ضرباً ... لكنّه مربوط
بشأنه ، مشدود بصخرة الى الريح
والعاصفة والزلزال والبرق
والصاعِقة ...

انتهى

تالياً من سبتمبر ١٩٣٩ الى يونيه ١٩٤٠

ملحق

هـذه « خواطر » كُتبتْ في العهد الذي كُتب فيه « السّد » او بعده بقليل ، ونُشرت في احدى المجلات ، حمّلتُها بعض شوارد الفكر حول « الوضع الوجودي » كما قد يتصوّره - او بالاحرى يجده في اعماق الوجدان - « المسافر » ، أعني المتنقّل بين اطوار انسانيته ، الممتحن لها ، السابر لاغوارها ، الممحّص لصحيحها من زائفها ، الطالب لايقاعها الموزون ، المتجنّب لاضطراب أوتارها ، الباحث - في الجملة - عن قرارها كما ينبغي أن يكون ، إنْ كان ...

وقد رأيت أن الحق ذلك هنا بـ « السّد » ، لِمَا قد يجد القارىء بين هذا وذاك من صلةٍ تكون له هدياً ...

المؤلف

من روح الشرق

المسافر

« اعلم أن اليقظة التي هي لنا بالحس هي النوم ،
والحلم الذي هو لنا بالفعل هي اليقظة »
(ابو حيان التوحيدي)

دفعته ضرورة المساء آخر عتمة يوم من أيام الصيف ، وقد جاءت ليلة لالآء من زجاج . فاذاهو يجيء الجبل ظاهر المدينة ، ويدخل الحديقة ويقوم تحت القبّة ، وقد أسقط في نفسه وجاءها الاسلام . ويقول : قد شُوِّشَتْ دواليب ، وانقضى توق ، وانفصمت أوتار . ولقد مات ميِّت ...

ويذكر عهداً له طويلا قضاه في البحث والطلب والجوس . اذ قالوا له : سل الشرق سرّ الطمأنينة والحلم . واذ قام فسار في طرق الشرق وثناياه ، فجاب من بلاده اليابس والرطب ، وذا الزرع وغير ذي الزرع ، والفضاء والصحراء ، والسهل والحزن والنخل والوادي . ودخل القصور الجنان وفاخر الامصار ووضّاح المدن . فما كان فضاء من قحط ممدود ، ولا مسجد وصلاة ، ولا جمل وسكون منيخ ، ولا مقبرة وبياض قبور ، الا سألها سرّ الطمانينة والحلم . واطال السؤال واكثر مدّ اليد

والحّ والحف حتى لقد ظنّ مراراً أنه فاز بالسرّ والطمانينة والحلم . ثم اذا هو تقوم له بعد الظن مآذن المساجد نقية صاعدة كالنبال ، فاذا التوق يقوم واذا الطريق والجوس تعود...

كذلك سنتين في سؤال وحاجة ورجاء في الفوز .

ثم يجيء هذا المساء باليقظة والموت : بشوق النفس وقد خان وخوى ، والطريق وقد طمست عمى ، وقد امتنع الحلم والاطمئنان نأى . ويحدث نفسه : « ومع ذلك افليست الطمانينة والحلم واضحة السرّ بينة الطريق ؟ اليس أنها..؟ »

« بلى . انها نوم من السماء وروح . وبراءة من الحركة والجهد والعناء . وحلول الدعة والهدوء والسكون . فالاسلام بها اسلام واذعان . والحي بها جسدا وروحا قرار واعتدال . لكن لا هي طمأنينة « ابولون » الاغريق تمسك يده عنان الافراس الجامحة ولا ترتعش ولا تألم ، وتغطي طمأنينته على باطن التقطع ودفين الداء ولا يحتار ولا يوجع . بل سكون الرخام . طمانينة الرخام يقوم ويقاوم ويثبت ولا خلجة في القوام ولا اختلاج . كذا ألحان موسيقى الشرق ، وكذا خطوط نقشه ، راجعة عودا على بدء ، ولا حركة ولا تحول ولا انتقال ـ ولا هي الجبن ولا العجز ولا التسليم للقدر ولا القول بالجبر . بل القرار الاعظم : قرار واجب الوجود . قرار الكون وادعاً الى سننه في اكتفاء ورضى . ولتكن الدنيا خضمّا من هوج العناصر هيّج القوى ، فان تحرك من الشرقي

ولا هو يبالي بها . فهو يعلم أن لا تحوّل ولاتقلب ولا جديد، وأنّه ما من شيء الا وهو الى غيره من وجه منتسب ، ومنه نسخة وصورة ، واليه عائد . وما حوّل رقص راقصاً عن نفسه قط وان هو حوّل صوره ولوّنه بالوان واكثر جسده . لكن الراقص يعود في آخر الرقص طاهراً خالصا تاماً الى نفسه . كذا فلتقلب الزعازع من الدنيا ولتحولها تحويلا ولتكثر منها اكثارا ولتفوض تقويضا . فلن تحير من الشرقي باسما وادعاً موقنا بأن الاعراض لا تذهب بشيء من الجوهر ولا تجيء بشيء : يقين الرخام . حكمة الرخام .

فالرخام والشرقي يعلمان أنهما دائمان باقيان ، وأنهما غالبا الدهر وأفنيا الزمان . فالزمان بالحركة : عنها يتولد وبه تقاس . والحركة تحوُّل وانتقال وفساد وزوال ، تاكل وتفني وتحرق وتبيد : من الاجرام ومن الاجساد ومن النفس والفكر . بل انظر النفس وحركتها ، والفكر وحركته ، وما يلقيان من نصب مشاكل الروح والحياة ومنغلق المعضلات ، كالرحى اذا دارت على قطبها ولا طعام وترحي ، فجعجعةٌ وحركة مبيدة وأكل حجر لحجر . واذا سكنت وسكن الحجران كلاهما على الآخر ، كان التطابق والاتفاق ، وانتفى الاكل والفساد . وكذا الشرقي في اتفاقه والكون ، وسكونه اليه ، واتحاده به . وللدوام جزاء السكون والدعة والبقاء ، وللابد .

وهذا هو سرّ بقاء الشرقي ودوامه على الدهر : هذا النفي

لكل حركة واضطراب ، وهذا الخلاص من كل زمان . تنفيها وتخلص منها أهرام الفراعنة واطمئنان « بوذا » وايمان الانبياء وحتى طمانينة التونسي لا يحتار ولا يتكدر ولا يألم لعالم تزعزعه الحروب والانقلابات . وهل اعلى واسمى من هذا التماسك والتمالك عن حيرة النفس ، وهذه الثقة بالحكمة ، وهذا الثبات للتحول والتقلب ؟ وهل اعظم من هذه الحكمة تمحو الاحداث الزائلة وتثبت ، وتبيد الاعراض وتبقى ، وحدها قائمة الذات ؟

ولكثيرٌ ما تبيد من ألم الانسان ! فهي تنفي بشري الحيرة عن الانسان ، ومأساة الصراع بين الكيان الناقص والكيان الكامل . فلا الشرق يعرف « ديونيزوس » يألم أنه كالفرع عُضد عن أصله ، وأنه وحيد مقطوع . ولا هو يعرف ماساة « ديونيزوس » يجهد ان لا تبقى حياته الفردية فرعاً مقطوعا من حياة الكون وان تعود له الصلة باصله فيتحد مع الكيان وروح الحياة المطلقة الكبرى . فما انقطعت صلة الشرقي بالكل المطلق ، ولا هو حدّته احوال ولا حصره زمان : وليد اللا نهاية والاطلاق ، في الله حي ، عائد الى الله . وما انحصر بشر في حدود البشرية الا جاء الالم وجاء العجز وجاءت مأساة شأن البشر في الحياة ، وما حدّته حدود أفق الانسان . لكن الشرقي غير محدود ، طالق من ظرف البشرية الى الله : فيه يحيا ، وبه تنفتح له او ساع الاطلاق ، وبه يسلم من ألم

« ديونيزوس » ، ألم الحد والفراق والوحدة والانحصار . كالحيران الخالي الى غار جبل يتيه روحا في فضاء الصحاري : قاعا صفصفا في قاع صفصف . فاما أن تميته الوحدة وانحباس النفس في النفس ، وخلو الروح في قشرة البشر ، والشعور بضعفه وانفراده وحقارته في الكون . واما ان يتسع ويطلق وتسري في روحه روح الكون وروح الاسلام وروح الله . كذا الحلاج وكذا الغزالي وكذا غيرهما ، سلموا اذا انكروا البشرية وانتسبوا الى عالم الوجود المطلق : عالم الله . وما قصر الحلاج ولا الغزالي ولا ابن الفارض عن سواهم فكراً وحيرة وتيها في المعضلات ، ولا هم عمدوا الى التصوف وانقطعوا الى الوجود المطلق عجزاً عن الفكر وعناء تفكير البشر . وانما هو الفكر يبلغ بصاحبه أقصاه ويقتصر فيه المفكر على العقل ، فلا يكون منه الا ان يفضي به الى الوحدة والى العجز عن بلوغ الحق بالتعقل والعقل ، ويشرف على اول افق اليأس والقنوط ، ويكاد ان ياخذه دوار الحيرة ، ويخاف ان يقع فيه . فاذا الخوف يلجئه الى ان يعمد الى العلويات : يولدها له عجزه البشري ويسلم بها من ان يغلب ويقهر . كذا ينتسب الى الآلهة عُجَّز البشر . فاذا العجز قدرة واذا سرّ طمأنينة الآلهة مفتوح » .

بكل ذا يحدث المسافر نفسه وبانه يعلم جد العلم ما هي هذه الطمانينة وهذه الحكمة الشرقية . ولطالما مدّ فيها الى الشرق يد السؤال . ولطالما الحف في ذلك . ولطالما حسب بعد

التصبر والتطلب وتوطين النفس أن الشرق رزقه اياها وتصدق بها عليه . ولكنه ينظر في هذا المساء، فاذا العطية كاذبة واذا الصدقة كاذبة واذا الحسبان خدعة . واذا هو يجد في نفسه أنه لم يفز من هذه الطمأنينة الشرقية بشيء قط . وينظر فتعاوده ذكرى آخر ما قطع من مراحل سفره الطويل :

فهو في قرية «كسرة» على جبل جلاميد من الصخر كقطع العذاب تتراكم وتتراكب ، ثم يقوم فيها فجأة كالجدار جانب الجبل عاريا كجنب مقروح ، تنشج في اسفله عين ماء باكية تسيل الى الصخر ، فتاكل من اصل الجبل ، ثم تقع الى الغور تحته فتشتت فيه وتضيع كيأس نفس عقيم . وتتبعثر بيوت القرية بين الصخور حقيرة بشرية ذلة مسكنة كشتمة في وجه قوة قاهرة او عار على جمال . ويتباسط فوق القرية على رأس الجبل بساط غليظ من حصى حديد عليه اغربة سود . وفوق القرية والجبل والبساط والاغربة السود هول فضاء اوساع السماء . وينظر المسافر حوله فاذا الجبل قافلة هول من اشخاص حجارة ، كل له ألم ، وكل له قصة جلبة ، والاذن تسمع وعين الماء تحكي . وتنشأ الحياة ويتحرك الجبل المأساة وتتحرك الصخرة الفيل والصخرة الدب قطاً وتدوس ، وتتفرقع اوصال الجبل ، وتصوّت احشاؤه يعصرها عصرا ليخرج ماء وعينا . ألما كألم الارحام لدى المخاض ... والسماء فوق ذلك مقوية مقفرة خالية .

وذا هو رمز المسافر نفسه : خلت سماؤه وأقفر ، واعتمل روحه وفكره ، وتألم وعصر احشاءه عصرا .

ثم هو في قرية «مكثر» يجول ضواحيها ويقف عند قوس نصر روماني ، عمارةٍ في الاثير قُدّت في السماء والزرقة . فينظر فاذا حجارة القوس تتباعد وتتصاعد في لين وهوادة، وتترامى ويترامى القوس الى أبعاد الفضاء، فيدخل الناظر من القوس الى السماء كانه جعل اليها طريقا معراجاً ولها بابا .

وذا ليس من المسافر في شيء : ذا رمز الشرق اللاحق بالسماء .

وها تعاود المسافرَ ذكرى عروجه الى السماء من القوس، فيعجب منها ويكذبها عقله ويقول : ما كان عروج . ولقد كان العروج. ولكنه كان في يسر بسيطا ، كانه بالطبع حتى ليبعده العقل وحتى ليكذّب. وها ذا المسافر يشرف على افق مالا يدرك بالتعقل، وكانه الخبط والجنون، وما هو بالخبط ولا الجنون . فيدرك ان طمانينة الشرقي وحلمه مما لا يتعقل فيه، وانه إن خانه الجهد اليه وكذب امله فيه واستحال عليه فذلك انه لم يطلبه قط الا من وجه التفكر والتعقل . وليس تدرك طمأنينة بالعقل والجهد والفكر . وما هي الا ان يكون الحي كيانا أملأ كيان ارفقه، طاهرا من التعسف والتوتر والاشتداد. فليس في الكون اضطرار ولا تكليف ولا عسف ولا شيء يرغم الى شيء : فلا قمر هذه الليلة الوضاح يجهد جهده ان

يكون وان يضيء . ولا هذه الليلة العذراء تجهد جهدها ان تكون وان تلطف وترق . ولا بحيرة هذه المدينة تجهد جهدها وتتكلف ان تتلألأ بلألآء القمر وان تتآخى على صفحتها الانوار والظلمات . ولا شيء من هذا السكون وهذا الرضى وهذا الملأ يجهد اجتهادا الى السكون والرضى والملأ . لا تكلف ولا تجهد ولا تصنع . بل ذاك هو الطبع والاتفاق والمطابقة والاتحاد والوصال ورضى الكل بالكل . ذاك مقدار ما يوجبه الكون على الحي من جهد الى الكيان : مقدار جهد الكائنات المطمئنة راضية مرضية . لا جهد الصراع والمقاتلة، ولا جهد عامل المناجم يقتطع احشاء الارض وينهب، ولا جهد « برومتي » يجهد ان يطلق من الاغلال ، ولا جهد الزورق البخاري يجر الباخرة العظيمة يدخلها الميناء، ولا جهد الحي النهم الاكول يقع على مائدة الدنيا فيأكلها أكلا . وانما هو ان تنفتح النفس للكون وان تكون اليه منتبهة يقظة وعنه راضية وبه واثقة وله مسلمة : هبة الحي نفسه للحياة . هبة الوجود المطلق للحي الطمأنينة والسعة والروح.

وتتسع عين المسافر الى المدينة وينظرها، فاذا هي كالبحيرة الرصاص واقعة الى نفسها قائمة هامدة هادئة كرقاص الساعة الساكتة . واذا عينه لاول مرة تنظر وترى فلا تجهد ولا تنصب

في النظر والرؤية ويشبعها النظر والرؤية... واذا وقارٌ وعظمة وهدوء وقرار .

وينحدر المسافر مفتوح العين في النوم والحلم . فيكون انحداراً رفيقاً رقيقاً لطيفاً . ويكون اول عهده منذ سنتين بالراحة والنوم .

ولا يزال في الطمأنينة والحلم .

تم طبعــه بمطبعة
الشركة التونسية لفنون الرسم
في ديسمبر
١٩٥٥

الفهرست

مقدمة ٨ ـ ٤٧

١ للاستاذ محجوب بن ميلاد ٨
٢ للاستاذ الشاذلي القليبي ٢٩
٣ للمؤلف ٤٧

السد ٤٩ - ١٨٦

المنظر الاول ٥٥
المنظر الثاني ٨٣
المنظر الثالث ٩١
المنظر الرابع ١٠٣

المنظر الخامس ١٢١
المنظر السادس ١٣٧
المنظر السابع ١٦٧
المنظر الثامن ١٧٥

المسافر ١٨٩ - ١٩٨

PJ
7846
A8
S9